

مصطفى صادق الرافعي

« إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تُعنيهم الوزارة بهذه القيود . . .
إن للرافعي حقاً على الأمة أن يعيش في أمن ودعة وحرية . . . إن فيه قناعة ورضى
وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه . دعوه يعيش كما يشتهي أن يعيش ،
واتركوه يعمل ويفتن ويبدع لهذه الأمة في آدابها ما يشاء أن يبدع ، وإلا فاكفلوا
له العيش الرضى في غير هذا المكان » .

هذا ما كتبه الشاعر حفنى ناصف إلى وزارة الحقانية عن الأديب الشاعر مصطفى
صادق الرافعي ، وكان الأول مفتشاً بالوزارة ذهب ليحقق شكوى من عدم احترام
الرافعي لمواعيد العمل ، وكان الثانى كاتباً صغيراً بمحكمة طنطا الأهلية .

هذا الكاتب الصغير الذى لم يتجاوز أكبر مرتب تقاضاه في حياته بضعة
وعشرين جنياً ، والذى عاش معظم سنى حياته قانعاً بركنه الصغير في محكمة طنطا ،
كان أمة وحده في عالم الأدب ؛ فكـم أدار من معارك أدبية ومسابقات مع كبار
الأدباء والشعراء في مصر والشرق امتد بعضها لبضع سنين ، وكـم من درة أخرجها
تنالق في جبين الأدب العربى ، وكـم كان له من إنتاج عميق غزير ، وكـم صبر على
الأذى الذى ألحق به كثيراً بغير حق ؛ وكان أشد ما يهاجمه به خصومه بعد أن
تعجزهم الحجة ويسقط في أيديهم أن يهتموه في مصريته ! .

حقيقة أن الرافعي ينحدر من أصل سورى إلا أنه ولد في يناير سنة ١٨٨٠
في قريته بهتيم من مديرية القليوبية في مصر ، ونشأ في مدينة طنطا حيث عاش أبواه
وماتا ، كما دفن هو أيضاً في ثراها يوم ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ ؛ ولقد مكث الرافعي
في المدارس حتى نهاية المرحلة الابتدائية ثم أصيب بمرض خطير لم يبرأ منه إلا بعد أن
فقد سمعه ، فانقطع عن المدرسة ، وعكف في بيته يدرس ما حوت مكتبة أبيه

من تراث العلوم الدينية والفقهية واللغوية . وأسرة الرافعي مشهورة بدينها وتقواها
وما أنجبت من علماء دينيين وقضاة شرعيين متضامين في علوم الفقه .

وكان لهذه النشأة أثر بعيد في سلوك الرافعي في الحياة ، فقد باعدت هذه العاهة
بينه وبين الناس ، كما زادت طريقته في تحصيل العلم الهوة بينه وبينهم فعاش غريباً
في بلاده منفرداً في حياته رغم هذا الكفاح الطويل المرير الذي حمل رايته من أجل
اللغة العربية والقومية الشرقية اللتين كانتا له هدفاً حتى قال : « القبله التي أتجه إليها
في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يعينها حية ،
ويزيد في حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا لا أمس
من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ، ثم إنه يخيل إليّ دائماً أني رسول لغوي للدفاع
عن القرآن ولغته وبيانه » .

لكن الرافعي قبل أن يحدد هدفه في الحياة هذا التحديد الواضح كان يعدّ
نفسه ليكون شاعراً من فحول الشعراء يحتل مكانة كمكانة بعض معاصريه مثل
حافظ أو البارودي ، وقطع مرحلة طويلة في هذه الطريق حتى صقلت موهبته
ونضجت وأخرج للناس ديواناً من ثلاثة أجزاء ، ثم أتبعه بديوان آخر ؛ لكنه عاد
فأحل النثر من إنتاجه المكان الأول ، لكن غلبت على أسلوبه الشعرية ؛ فهو نثر
شاعر ، أو كاتب يكتب بأسلوب الشعراء .

وكان الشرق في تلك الفترة من حياة الرافعي ينفذ عن نفسه غبار سبات
عميق قد أخذ يفيق منه ، ودبت في أوصاله روح جديدة ، وأخذ ينبثق في أرجائه
وعى جديد ، وتلفت الشباب باحثاً عن أغانيه فقدم له الرافعي نشيده الخالد :

اسلمى يا مصر إننى الفدا ذى يدى إن مدّت الدنيا يدا
أبدًا لن تستكينى أبدا إننى أرجو مع اليوم غدا
فكان نشيداً وطنياً ، ثم نشيداً لكشافه مصر ، ثم نشيداً قومياً . وتالت
أناشيد الرافعي حتى لقب يوماً بشاعر الأناشيد :

ولقد تجاوزت نفس الشاعر مع ثورة الشعب التي قام بها عام ١٩١٩ فعبّر عن آلامه وآماله بنشيدته :

حُماة الحِمَى يا حُماة الحمى هلموا هلموا لمجد الزمن

لقد صرخت في العروق الدما نموت ، نموت ؛ ويحيا الوطن

لكن الراقى ذلكم الشاعر مرهف الحس رقيق القلب ما كان يستطيع أن يغمض عينيه عن مناظر البؤس المحيط به والفقر الذى يكبل أغلبية مواطنيه بقيوده وأحزانه ، فيمضى يكتب الأناشيد ونفسه تنقطع حسرات على إخوان له فى الإنسانية . . . لقد نفّس عن آلام نفسه بكتابه « المساكين » الذى كان لصدوره دوى كبير فى عالم الأدب العربى . . . ولقد قال فى مقدمته . . . « هذا كتاب حاولت أن أكو الفقر من صفحاته مرقعة جديدة . . . فقد والله بَلَيْتْ أثواب هذا الفقر ، وإنها لتسندل على أركانه مِرَقًا متهدلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلفّقها بخيوط من الدمع ، ويمسكها برُقع من الأكباد ، ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخبية إلى هم . وأقبح من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً ، أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتعمى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين . . . » .

وفى قصيدة من هذا الكتاب قال يصف فتاة أفقرتها الحرب (٩١٤ و ٩١٨) :

طريدة بؤس ملّ من بؤسها الصبرُ	وطالت على الغبراء أيامها الغُبرُ
تفكرت الدنيا لها ، ورمّت بها	على الكوكب الهاوى حواءَ فضاً قَفَرُ
وكانت كما شاءت وشاء جلالها	كما اشتهت العليا ، كما وصف الشعر
وما قيمة الحسناء يقبح حظها	وتندوى بروض الحب أيامها النضر
من الحسن معنى يهلك الحسن عنده	كما أهلك الأزهارَ أن يؤخذ العطرُ

وإني ليأخذنى العجب والإعجاب بهذا المعنى الأصيل المبسك في وصفه النوم
في العراء في نفس القصيدة حيث يقول :

وفي غرفة مما بنى الله لا الورى فليس على من حلّ ساحتها أجرٌ
جوانبها شرق الظلام وغربه وفي سقفها ضاءت كواكب الزهر

ولقد تجلت شاعريته في أروع صورها عند ما كتب عن حبه ... حبه العذرى
النادر في عصرنا الحديث ، وكان غرامه بأديبة فيلسوفة شاعرة ، وكانت في طريق هذا
الغرام عقبات كبار ، لعل أهمها اختلاف الديانة .. وقد عرفها في صالونها الأدبي الذي
كان كعبة الأدباء والشعراء في القاهرة ، ثم اتصلت بينهما الأسباب ، وما أكثر
ما انقطعت . فلجأ إلى الكتب يتحدثان حديثهما العذب لتشركهما الملايين في
متعتهما المثلى . فاستمع إليهما يتحدث إليهما :

« لقد وضعك حسنك في طريق موضع البدر . يرى ويحب ولا تناله يد ،
ولا تعلق بنوره ظلمة نفس . لكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ . كأنه
ما خلق ذلك الخلق المنتثر الوعر إلا لندق به قلوب المصعدين فيه ... كوني من شئت
أو ما شئت خلقاً مما يكبر في صدرك ، أو مما يكبر في صدري . كوني ثلاثاً من النساء
كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولكن لا تكوني ثلاثة آلام . انفعي نفع
العطير الذي يلمس بالروح ، واظهري مظهر الضوء الذي يلمس بالعين ؛ ولكن دعيني
في جوك وفي نورك ، اصعدى إلى سمائك العالية ولكن ألبسني قبل ذلك جناحين ؛
كوني ما أريدت نفسك ، ولكن اشعري نفسك هذه أنى إنسان » ... وكاد الزواج
أن يتم بينهما ، لكن أهليها قالوا إنها مجنونة ، وحملوها إلى مصحة في موطنها
الأصلى حيث سجنوها إلى أن مات الراقى .

قلت في مستهل حديثي إن الشرق كان يستقبل أنسام نهضة جديدة عندما
كان الرقى في فجر شبابه ، وقد صحب هذه الصحوة قيام فريق من الأدباء بالدعوة
(٩ — في موكب الحائرين)

إلى التجديد في كل شيء وإنكار القديم في كل شيء ، بل دعوا إلى تمصير اللغة العربية عن طريق إدخال الألفاظ الدارجة ومزج تراكيبها بالمصطلحات العلمية . وكانت « الجريدة » ، ومن بعدها « الجديد » لسان حال هذه الدعوة الجديدة ، وزعموا أن الميراث الأدبي البليغ قديم ، ويجب أن يذهب بذهاب ، أهله فلم يتصدّ لمدافعتهم سوى الرافعي ، وهو من هو من صغر الشأن ، على حين كانوا جماعة كبيرة من أصحاب الجاه والسلطان ، وكانت المعركة خيراً وبركة على الأدب العربي إذ حوّلت الرافعي إلى محام عن العربية وآدابها ، فأخرج على أثر ذلك كتابه (تاريخ آداب العرب) الذي قال عنه أمير البيان شكيب أرسلان « لو كان هذا الكتاب خطأً محجوباً في بيت حرام إخراج منه ، لاستحق أن يحجّ إليه ؛ ولو عكف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار لكان جديراً بأن يُعكف عليه » .

أعقب هذا الكتاب جزء ثانٍ في إعجاز القرآن . لقد كتب الرافعي الكثير عن الإسلام ، ودافع عنه كثيراً أمام ناقديه ، ولعل ما كان يغمزه به خصوصه في مصريته هو ما جعله يكثر من طرُق هذا الموضوع والخوض فيه ، بل جعله من الرواد الأوائل في القرن العشرين الذين جددوا دعوة الإسلام العالمية التي تعتبر كل بلاد المسلمين وطناً لهم أينما كانت شرقاً أو غرباً ، وترمى إلى محو الحدود السياسية بين بلاد الوطن الإسلامي .

عبد الحميد الديب

عبريتان ظهرتتا في شرقنا العربي في مطلع القرن العشرين . أما العبقرية الأولى فقد تمثلت في الفنان سيد درويش الذي بعث الموسيقى الشرقية بعنقا جديداً ، وأما العبقرية الثانية فكانت عبد الحميد الديب ذلكم الشاعر العظيم .

وكان لقاؤهما عبقرياً عجيباً لا دخل في تدبيره لغير الصدفة إذ هي التي ساقته الديب إلى حيّ بولاق ، وهناك اختار إحدى المقاهى البلدية ليقضى فيها بعض فراغه ، وجلس ليعتسى الشاي فاسترعى نظره رجل يلوك في فمه شطرة من أغنية في أحد أركان المقهى وقد أخذ يردد هذه الشطرة عشرات المرات دون أن يتمها :

« والله تستاهل يا قلبي »

فتقدم منه الديب متطفلاً وقال له : كمّلها :

والله تستاهل يا قلبي ليه تميل ما كنت خالي

إنت أسباب كل كربى إنت أسباب ما جرتالى

وكاد سيد درويش أن يطير فرحاً ، فانتصب واقفاً وعانق الديب ، وأخذ يقبّله استعساناً .

كان الديب حينئذ طالباً في مدرسة دار العلوم في منتصف العقد الثالث من عمره وقد هبط إلى القاهرة من بلدته كمشيش مركز منوف ليطالب العلم في الأزهر كغيره من أبناء الريف، فلما أتم المرحلة الأولى من التعليم الأزهرى التحق بمدرسة دار العلوم ليتخصص في العربية وآدابها .

ولقد كان مولده قبل مولد القرن العشرين ببضع سنين في تلك القرية من أسرة

متوسطة الحال تاجرت في القطن فارتفعت فجأة وانخفضت فجأة ، فعاش الديب حياتين ، وذاق لونين جدد مختلفين من ألوان العيش ...

ولقد هزت الأحداث التي مرت به نفسه فزلزلت كيانه ، وأحدثت اضطراباً عنيفاً في تفكيره ومشاعره ؛ فاشتركت كل هذه العوامل في تشكيل مزاج هذا الإنسان فكان رقيق المشاعر ، لكنه عنيف الثورة . . له قلب طفل وعقل فيلسوف . . سريع الغضب ، سريع الرضا .

وكان لا يتنقله السريع إلى حضيض الفقر مرتين أثر بالغ فيما عرف عنه من حقد ممكن على المجتمع ، بل إن هذا الانتقال قد هياً للديب فرصة نادرة لتصوير حياة السواد الأعظم لمجتمعه أصدق تصوير . . هذا السواد الجاهل الفقير ، ولو أنه كان كثيراً ما يستعير هذه الصور من حياته نفسه كقوله :

أَذَلَّ الدَّهْرَ لَا مَالٌ وَلَا سَكَنٌ فَتَى تَزِيدُ عَلَى أَنْفَاسِهِ الْحِجْنَ
ثِيَابَهُ كَأَمَانِيهِ مَمْزُوقَةٌ كَأَنَّهُ وَهُوَ حَيٌّ فَوْقَهُ كَفَنٌ

وهو في أحط درك من الفقر لا ينسى عبقريته ونبوغه وتفوقه ، وهي أمور عميقة في شعوره ، فيقول مسترسلاً في نفس القصيد بعد أن يعترف بأن حكمته مضیعة لفقره ، ونتاجه هباء لمكانته من المجتمع :

كَأَنَّهُ حَكَمَةُ الْمَجْنُونِ يَرْسُلُهَا بَغِيرِ وَغْيٍ فَلَا تُصْنَعِي لَهَا أُذُنٌ
هُوَ الْهَدَى صَرَفْتُمْ عَنْهُ مَحْنَتَهُ إِنْ الْعَزِيزُ مَهِينٌ حِينَ يُمْتَحَنُ
أَلَا فَصُونُوهُ مِنْ بَأْسَانِهِ كَرَمًا وَلَا تَحَاوِهِ يَوْرَى شَرِّهِ الزَّمَنُ
إِذَا رَأَيْتُمْ مَحْمِلَ الْبُؤْسِ آخِضَ لَكُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ رَوْضًا نَبْتُهُ حَسَنٌ

بل إن الديب مهما زلزل إيمانه بكل قيم الحياة فإن هذا الإيمان بنفسه لا يتزعزع طرفة عين ، بل هو يبلغ منتهى القوة ؛ بل الغرور ، حين يقول :

أليس بياض الكوكابين مبشراً بأسود عيش في غياهبه أفضى
فن فقد عقلٍ كان مبعثَ حكمةٍ إلى البؤس في ذل السؤال أو القرض
إلى السجن بين المجرمين يؤودني زمان كيوم الحشر يأتي ولا يمضي
وفاطمة هذه التي يتوجه إليها بالحديث ، قيل إنها بائعة يانصيب ، ومدمنة
كان يقاسمها كما كانت تقاسمه ما بحصلان عليه من الخدر ، وكان لها وفيها وفاء نادراً
كما كانت له .

وهو يمضي يلتمس العاذير لنفسه من سوء حاله فيقول :
يقولون : سكير . وما شربوا كأسى وما شربوا البلوى كما شربت نفسي
إذا قلت : قديس : يقولون : سادراً وإن قلت : جئني يحملوني ؛ إلى رمسى
لكن إذا طالت البلوى وأزمن الفقر لابد أن يضع الحياء ؛ لاسيما بعد
أن انكشف السر ، وزار السجن ؛ فنرى الديب بعد ذلك مستهتراً لا يحاول الدفاع
عن نفسه أو الحياء من بوائقه ؛ بل نراه ينقلب متمرداً على التهاليد ، هازئاً بالناس ،
ساخراً بالمواضعات ، مدافعاً عن مبادئه ؛ فيقول في إحدى قصائده :

هات المدام فدينُ الله تيسيرُ وأسعدُ الناس مخدورُ ومخدورُ
هات المدام ولا تعرض لمتربتي مهما غلا العيش لم تغلُ القوارير
هات المدام الصبوحَ البكرَ يحملها إليك أختُ ساجي الطرف مغرورُ
إذا دعوت تراخي عنك معتذراً وأسكرت كالطلي منه المعاذيرُ
فديتها حانة الخاخام هادئة سكرى يعربد فيها الحُسنُ والنورُ
وهو لا يرى أى غضاضة بعد ذلك في اعترافه أنه لا مكان له إلا قارعة الطريق
أو حانة الخاخام هذه :

من كان يحسدني فليرتقب سحراً إني على الجوع أطوى الأرض حيرانا
ليلتمسني لدى الخمار يجبسنى في السجن آنأ وفي حانوته آنأ

وحانة الحاخام هذه حانة صغيرة حقيرة في حارة اليهود ، وكان يحتفل صاحبها به لما يراه من التفاف الرّواد حوله وانجذابهم إلى حانته بفضل وجود الديب فيها ، وكان مبالغة في إكرامه يدعوا بنته الجميلة إلى القيام على خدمة الديب أحياناً ؛ حتى أغرم بها الديب ، وشغف بها حباً ، وقال فيها شعراً كثيراً . ولعل من أبلغ ما وصفها به هذه الصورة الشعرية الأصلية التي بلغت من روعة التصوير ودقة الوصف قصى المدى :

لا جنّبوني لحظّها وقوامها وثدياً وراء الثوب يقظان يحلمُ
تقدّم لي كأسى وترنو مدّةً فمن أتى خمرها أجنّ وألهم ؟

ألا تلتمسون عذراً لهذا البقرى الذى ردّ إلى الشعر العربى اعتباره أمام التاريخ وبعد ما عرفتم ، إذا هو صاح بأمتة التى جهلته وتركته مضغة سهلة للداء ولأنواء الحياة ولم تقدر نبوغه وفنه قائلاً :

يا أمة جهلتنى وهى عالمة أن السكواكب من نورى وإشراقى
أعيش فيكم بلا أهلٍ ولا وطنٍ كمش منتجع المعروف أفاقى
وليس لى من حبيب فى دياركمو إلا الحبيبين : أقالمى وأوراقى
لم أدّر ماذا طعمتم فى موائدكم لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاقى !

لكن الحظ يومض ومضة واحدة فى آخر أيام الديب ، يوم التقى فى مقهى ألفيشاوى بالحنى الحسينى بوزير أديب فى إحدى سهرات رمضان ، فيشغق عليه الوزير ، ويسعى له حتى يعين فى وظيفة بوزارة الشؤون الإجتماعية عام ١٩٤٣ ، ويبلغ الحظ فى إكرام الديب فيزوجه من سيدة تجمعها به رابطة البؤس . ويبدو الديب لأول مرة فى ثياب نظيفة منظمة ، ويتذوق معنى الحياة المنتظمة ؛ لكن الديب يموت فجأة ولم تنقضى أشهر معدودات على زواجه ووظيفته ، وكأنى به كان ينظر بعين الغيب يوم قال :

أنا ملك عبقرى الجلال وإن صدَفَ الناجُ عن مفرق

ولابد أن يكون لهذا الملك آمال عراض تتفق وجلال تصوره؛ فتراه أول ما يهبط القاهرة، ويلتحق بالأزهر؛ يستأجر حجرة متواضعة في (قصر الشوق) بالحى الحسينى، ولا تلبث هذه الحجرة أن تصبح نادياً سياسياً ومقرّاً (لحزب العطف على الإنسانية) الذى ألفه مع زميله الشيخ محمد بدير (الحامى الشرعى الآن). وقد ألقى الديب حربه بعد أول نقد وُجّه له فى صورة كاريكاتورية بمجلة الكشكول. وكان الديب جباناً أمام النقد وأمام الموت لا يتصور كليهما... بل يفر منهما فراراً. وجاء بعد ذلك لقاءه بسيد درويش فكان نقطة تحوّل فى حياته، إذ كان سيد درويش فى حاجة إلى من يمدّه بالأغاني، وقد وجد فى الديب العبقرى الموهوب الذى طال ارتقابه، فلم يفلت الفرصة المتاحة، وقرب الديب إليه، وأغدق عليه المال بغير حساب، وكان الكرم من الخصال الأصيلة فى الفنان سيد درويش.

وفى غمرة هذا الكرم انتقل الديب للسكنى فى مسكن أنيق (ثيلاً) ولم يقدر عواقب الآفة الملعونة التى أعدها بها سيد درويش، ولا عمل حساباً للزمن وتقلبات الأيام، وإذا بالموت يحتطف صاحبه فجأة، وإذا بالحذر يلتهم ما بين يديه من مال. وتنقطع أسباب الرزق بالديب فتلفظه (الثيلاً) إلى الطرقات يمشى فيها هامئاً طول الليل، ويأوى مع مطلع الفجر إلى المساجد. ولقد انتهى به الطاف ذات ليلة إلى مسكنه الأنيق، فوفف يناجيه بقصيدة من عيون الشعر؛ قال فيها:

لو أستطيع البُكا يا أيها الطلّل	بكيتُ حتى شكّت من دمعى المُقلّ
أرى الحوادث ذوباناً مقدّفة	على دون الورى تَعْدُو وتقتل
فكم تصوّح عودى بعد نُضرته	وكم خبأ فى دياجى عمرى الأمل
وكم دعت لى أمى وهى باكية	وكم دعا لى أبى يقظان يبتهل
إذا تطلّبت عيشى مِتُّ من كمد	وإن تطلّبت حَيِّنى يبعُد الأجل

وأجلس الليل في حبي أسأرم وكلهم بمجالي رقتي حفلوا
حتى إذا سلموا للعود وانصرفوا سریت جوعان يفرى عزمى الكلال
جوعان ! يا محنة أربت على جلدي كأن ليلى بيوم البعث متصل

ومن كان في مثل طبع الديب من الكرم والجود يحزُّ في نفسه ألا يجد
ما يدعو الصحب إليه ، بله ما يتبلغ به . وقد عبر عن أساء بقوله :

مرّوا على الدار يوم العيد ضيفانا يستمطرون نداها كالذى كانا
والدار لما رأهم مقبلين لها تعاونت في البكا أهلا وبنيانا

وتشتد الحنة بالديب ، ويشعر بديب الفناء يحمله إليه الخدر الذى أدمن
عليه ، وهو لا يريد أن يحمل نفسه شيئاً من تبعه حاله ، بل يلقى العبء كله على
الخط ، فيقول كأنه يرثى نفسه وأمانيه :

وداعاً شبابى فى ربيع شبابى وأهلا حسابى قبل يوم حسابى
أمانى تغريها الخطوب رأيتها كأشلاء قتلى فى رؤوس حراب
ولو أن وهاب الخطوظ أراد لى سلامة إحداها لخفف ما بى
ولكنها ماتت بليلة عرسها ومن دمها القانى جعلت خضابى

وتردّى الديب فى الهاوية إلى منبهاها ، وشاعت أنباء نكبته بين الأدباء ،
فراح أحد كبار الشعراء يدعو الزملاء للأخذ بيد زميلهم فى محنته ، وكتب
مقالاً طويلاً فى الأهرام بعنوان (الأديب الشّام) .

ورغم أنه لم يذكر اسم الديب صراحة فى المقال إلا أن كل سطر كان يشير
إليه ، وعزّ على الديب أن يعرف الناس أمر انحلاله ، فأخذ يدافع عن نفسه
فى قصائد كثيرة من أروعها قوله :

أفاطم إن الناس قد أكلوا عرّضى وبت لعيناً فى السموات والأرض
يقولون : شّام . وما شّم معطسى سوى الوردة الفيعماء والنرجس الغض

بينى وبين الغنى خصامُ وفرقةٌ سالها التثامُ
فلو تدانى إلى يوما لردّه عنى الحِمَامُ

وقبل أن نختم هذا الحديث لا يفوتنا أن ننوّه بالسخرية في شعر الديب :
فقد كانت السخرية إحدى طباعه الأصيلة . ولقد طلع الديب على الناس بصورة
كاريكاتورية رائعة في سخريته الشعرية ؛ إلا أن حقه على المجتمع الظالم الذى عاش
فيه كان يجعل هذه الصور تقطر مرارة وأسى . . . استمع إليه بصف حبرته وقد
أسمأها « جُحر الذئب » :

أفى غرفتى ياربّ أم أنا فى لحدى ألا شدّ ما ألقى من الزمن الوغدِ
فأهدأ أنفاسى تسكاد تهدها وأيسر لسيّ فى بنايتها يبردى
ترانى بها كل الأثاث ، فمطنى فراش لنومى أو وقاء من البردِ
وأما وساداتى بها فجرائد تجدّد إذ تبلى على حجر صلدِ
تساكننى فيها الأفاعى جريئةً وفى جوحها الأمراض تفنك أو تعدى

وهى صورة لمعظم مساكن الفقراء التى نادى الكثيرون بإصلاحها ، وقد كان
من خصائص المجتمع الذى عاش فيه الديب النفاق ، وبغيره يضيع المرء ويسقط من
ركب الحياة ؛ وقد قال الديب فى ذلك :

أنافق فيها مُكرهاً لخصاصتى وأبذل نفسى أن أنال حياها

وكذلك اشتهر هذا المجتمع بخطب العرش الخيالية والمشاريع الوهمية التى لا يقصد
من ورائها إلا الدعاية للأفراد . ومن أمثلة هذه المشاريع مشروع سموه (مشروع
الحفاء) لمنح كل مصرى حذاء ينتعله ؛ وطبيعى لم يلبس الديب أى أثر جدّى لهذا
المشروع ، بل كان يرى أن الجوع أولى بالعلاج .

ولقد استشرى الفساد وسادت شريعة الغاب ، وأصبح اللص شريفاً عظيماً ،

وما زال الشعب يرجو خيراً ويأمل بمشروعات وزارة التموين نفعاً ففردى الديب بصيح
بهذا الشعب الطيب :

كلوا الحكومة أو موتوا من الجوع صوت الضعيف المرجى غير مسموع
ويرى الديب أحزاب الأقلية التي تسمى نفسها أحياناً بأحزاب المعارضة تفقد
الاجتماعات المتوالية والولائم للاجتماع والتأمر للظفر بكراسي الحكم ، ويمزج على
الديب ألا يجد ما يأكله ، وهؤلاء المعارضون مفروقون في المآدب ، فيقول
في سخرية عجيبة :

أقضى ليالى الطوال على اللضى فياليتنى يا قوم كنت معارضا
وقال يسخر من حزب آخر

برامكة وليس لهم رشيد وأقيال وكلهمو عبيد
مدحتهم فما شرفوا بشعري خلستهم وما شرف القصيد
وقد تجد الفكاهة الرائقة في سخرية الديب كما قال في أحد البخلاء :

الجود عندكمو أضفأ أحلام وأكلة اللحم من عام إلى عام
ولقد أشرفت سخرية الديب وانتفت منها المرارة والحق بعد أن اطمئن
إلى عيشه ووجد رزقه ، لكنه ما كان يتصور أن الأمر بلغ من الفوضى إلى حد خلق
الوظائف والدرجات قبل أن يجدوا لها العمل ؛ حتى ولا المسكان ؛ فلا يملك نفسه
أن يقول :

بالأمس كنت مشرداً أهلياً واليوم صرت مشرداً رسمياً

الآنسة مى

مى . . . اسم كان ملء الأسماع والأنفواء ثم اختفى فجأة فى غمرة الحياة ، كما أقفر ناديها فجأة ، ذلك النادي الذى جمع بين الأدباء والعلماء ورجال السياسة ، وبين مختلف الثقافات ؛ وكان له أثر بعيد فى توجيه التيارات الأدبية فى الشرق العربى . ولقد أجاد مطران وصفه ووصف فجيعته فيه حين قال :

أقفر البيت أين ناديك يا مى — إلىه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلاً وفضلاً فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروباً ويُدَار الحديث فيه شُجوننا
وتصيب القلوب وهو غِراثٌ من ثمار العقول ما يشهينا

والواقع أن منتدى مى هو آخر منتدى عرفته القاهرة ، فتح أبوابه لأصحاب مختلف الثقافات وللأدباء خاصة . فكم قدّم لعالم الأدب العربى من أديب جديد أصبح بعد قليل نجماً لامعاً فى عالم الأدب ؛ وكم من مساجلات ومناقشات دارت فى رحابه فكانت كلها خيراً وبركة ؛ وكم من صداقات نافعة نشأت أول ما نشأت بين جناباته ، وكان الفضل فيها لكياسة صاحبتة وحذقها فى استقبال ضيوفها وإدارة الحديث بمهارة بالغة دون أن يحس أحد من الحاضرين أنها متزعمة أو متصدرة فى الحفل . وكانت تسود الجمع روح ديمقراطية مستمدة من روح صاحبة المكان .

لكل هذا كان الجميع يعشقون هذا المنتدى ولا يتخلفون عن الحضور إليه فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع ؛ حتى قال الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبرى :

روحى على دُور بعض الحى هائمةً كظامى الطير تَوَاقاً إلى المساء
إن لم أمتع بمى ناظرى غداً أنكرتُ صبحك يا يومَ الثلاثاء

وكان فقد هذا المنتدى وصاحبه نخبة أحسن بها كل رواده وعارفو فضله .
وقد عبر الدكتور طه حسين عن شعوره في حفل تأبينها بعد أربعين يوماً من وفاتها
في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ متمثلاً بهذه الأبيات للشاعر الأموي ذي الرمة :

خليلىّ عدّاً حاجتى من هوا كما ومَن ذا يواسى النفس إلا خليلُها ؟
ألما بمى قبل أن تطرح النوى بنا مطرحاً أو قبل بين يزيلُها
فإلا يكن إلا تعلّل ساعةٍ قليلاً فإنى نافعٌ لى قليلُها

وقد أعجبت مى بهذا الاسم العربى لصاحبة ذى الرمة فاخترته لنفسها بعد أن
بلغت أشدها ، وعرّفت على شخصيتها الغذة المستقلة ، وأطرحت اسمها الأول الذى
أطلقه والداها عليها (مارى زيادة) .

ولقد كانت مى أو مارى زيادة لبنانية الأصل ، لسكنها ولدت قبل مطلع
القرن العشرين ببضع سنوات فى الناصرة التى عاش فيها السيد المسيح — من أرض
فلسطين وكان أبوها مارونيا ، وأمها أرثوذكسية ؛ فشبت أول ما شبت فى جو
يسوده التسامح الدينى ، وأدخلت فى مدرسة للراهبات فى عينطورة بלבنة فتعلّمت
هناك قليلاً من العربية وكثيراً من الفرنسية ، واشتهرت بين لداها بحسن الإلقاء
وبراعة الإنشاء وإجادة التمثيل فى جمعية التمثيل بالمدرسة .

ولما أتمت دراستها اشتهرت فى لبنان كخطيبة ولا سيما بعد حفلة الكوخ
الأخضر سنة ١٩١١ التى أقيمت فى ظهور الشوير بلبنة لتكريم الفتاة اللبنانية ،
ولقد انتقل أبوها إلياس زيادة بعد ذلك إلى مصر حيث تولى إصدار جريدة
المحروسة ، وانصرفت مى عن الكتابة بالفرنسية إلى الكتابة بالعربية ، وأخذت
مقالاتها تترى على جريدتى المحروسة والزهور التى كان يصدرها وقتئذ أنطون الجميل ،
ولم تشغل الكتابة مئياً عن الدرس بل ظلت تتابع المحاضرات فى الجامعة المصرية
الجديدة وخارج الجامعة حتى حصلت على ثقافة واسعة متنوعة من الدرس والرحلات ،
وبلغ عدد اللغات التى تتقنها تسعاً .

ولم يكن نحوئل مى عن الفرنسية إلى العربية إلا تحولاً طبيعياً بعد إذ اتضحت لها نواحي شخصيتها ، وتعرفت على قوميتها ، فأحبت الشرق وعملت مخلصاً في سبيل رفعة شأنه . وإنها لتتدله في هذا الحب إلى أبعد حد فتتاجيه : « أيها الشرق ! يا شرق الطرب والحميا والنخوة والشدة العاصفة ، إنك لتتجمع تحت نظرى كلوحة مصورة ، فأرى فيك الفقر والجهل والاضطراب والاحتدام والانفعال . . . ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة ، وبرغم ذلك فأملى بك عظيم كالحياة والحرية . . . أى قوة هذه التى تشد وثاقى إليك ؟ لماذا أهوى من لغتك الشدو والشجى والنواح والنبوة السريعة الحادة والهاثف الأبنى الحار ؟ ألا نظرة إلى هذه السماء الخيمة عليك بهاء الجحد واللجين والأرجوان ، إنها الجوى الوحيد الذى أظل الرسل ، وما رضيت أن تنزل في غير هوائه النبوات . . . ها قد جاء وقت النهوض رغم النوائب والمبطلات . . . فإلى النهوض . . . » .

ولم يكن حبها للشرق بمانعها عن النظر السليم إلى الأشياء ، ولم ينشأ عنه أى نوع من التعصب ، بل كانت تدعو إلى الاقتباس من عناصر المدنية الغربية لأنها لا تؤمن بأن هناك مدنيات متعددة للشرق والغرب والشمال والجنوب ، لكنها تؤمن بوجود مدنية واحدة تعاونت الشعوب على تناول العمل فيها فالمسلمون أتوا بالنبوات ؛ والآريون هنود وفرس — أرسوا قواعد الفلسفات الباطنية والإلهيات ؛ واليونان الفن والفلسفة النظرية ؛ والرومان التشريع ، ثم جاء العرب فجمعوا هذه الثقافات المختلفة ، وورثوا هذه المدنيات ، وحافظوا على تراث الإنسانية ، وزادوا عليه حتى أسلموه لمن بعدهم . ولم يكن يعقل أن نصِّف مى بالتعصب وهى التى عاشت في بلدان مختلفة ، وهفت نفسها إلى بلدان آخر ، واحترمت الأديان جميعاً ، بل إن تسامح مى وعاطفتها الإنسانية وروحها الكبيرة قد اتسعت حتى شملت العالم أجمع ، فأصبح لها وطناً ، والناس جميعاً إخواناً .

ولقد كان لى رسالة فى الحياة كرتست لها جهدها ووقتها ؛ تلك هى نهضة المرأة الشرقية ، وقد خلصت غايتها من جهادها فى قولها « إن مجموعة أعمال المرأة غاية جليلة يقوم بها النساء عالياً الجباه تحت أكاليل العز والجهاد ، وقد اختفت من عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة ، وحلت محلها نظرة من لم تعد عبدة المجتمع ، ولا عبدة الحاجة ، ولا عبدة الرجل ، ولا عبدة قلبها ؛ وهو أعظم جائر مستبد .

إن هذا الكلام لى ليصور لك مدى القوة التى كانت تتمتع بها والعنف الذى كانت تعالج به موضوعاتها ، لكن هذا لم يخرج لى عن طبيعة المرأة لاسيما إذا مس الموضوع الناحية العاطفية فإن كفايتها عندئذ تسيل رقة وعذوبة حتى ليبدو أسلوبها النثرى نفحات من الموسيقى أقرب إلى الشعر ، أو هو فى واقع الأمر شعر لم يتقيد بالأوزان والقوافى . فاستمع إليها تتحدث عن نهر الصفا فى لبنان وقد أخذت من على شاطئه بعض الحمصى الملونة تناجيها : « أيتها الجواهر سأحملك معى إلى وادى النيل لتذكرينى بالعواطف الكثيرة التى تلاطمت فى فؤادى أيام نهر الصفا . . أنت ذكر الأبدية التى حيت فيها لحظة » . بل هى أحياناً تجد نوعاً من السعادة فى إعلان ضعف أنوثتها واستسلامها لهذا الضعف الذى هو من طبيعة كل امرأة ، فنراها تقول فى أحد كتبها : « سأدعوك أبى وأمى متهيبة فىك سطوة الكبير وتأثير الأمر ، وسأدعوك قومى وعشيرتى أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دوماً بالحبين . . . وسأدعوك أخى وصديقى أنا التى لا أخ لى ولا صديق . . . وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة أنا التى تتخيل فى قوة الأبطال ومناة الصناديد . . . وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان ، ثم أبكى أمامك وأنت لا تدري . . . » .

بل إن الأنوثة الكامنة فى جوانحها لتصرخ فى قوة عندما تحب وتطالب بالفناء فى صفة الحبيب فتقول له : « سأستعيد ذكرى متكلماً فى خلوتى لأسمع منك حكاية غومك وأطامك وآمالك . . . حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد وسأستمع إلى جميع الأصوات على أعنر فيها على لهجة صوتك ، أشريح جميع الأفكار وأمتدح

الصاقب من الآراء ليتعاطفم تقديري لآرائك وأفكارك . . . وسأبتسم في المرأة
ابتسامتك . . . » .

« في حضورك سأتحول عنك إلى نفسى لأفكر منك ، وفي غيابك سأتحول عن
الآخرين إليك لأفكر فيك » .

« سأتحيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ،
وكيف تغلب على عادى الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى
الانفعال النبيل . . . » .

« وفي أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخوراً لأنك أوحيت إلى ما عجز
دونه الآخرون . . . » .

إن القارئ لآثار مـى يلحس وجود روح حزينة تكاد تسيطر على جميع
كتاباتنا ؛ فهى فى ربيع شبابها الباكر وفى سن الأمل الباسم قد أصدرت ديوان
شعر باللغة الفرنسية رغم أنها لم تنظم الشعر فى العربية - أسمته (زهرات حلم)
Fleurs de Réve وأهدته إلى روح لامرئين شاعر القلوب الحزينة الذى رقت روحه
على كل صفحة من صفحات الديوان .

وقد يكون مرجع هذا الطابع الحزين إلى عكوف مـى على دراسة التوراة تعيد
فيها وتبدى ، وقد أضافت إليها بعد ذلك نوعاً من التشاؤم وسوء الظن بالناس بعد أن
درست فلسفة أبى العلاء وأعجبت بآرائه .

وقد زادت هذا الحزن والم ألم أحداث الأيام وما أصابتها به من نوازل . . . ومن
يدرى لعل إخفاقها فى تحقيق حلم المرأة فى حياة سعيدة ناعمة زادها حزناً وأبعدها عن
الناس حتى آثرت العزلة فى أعوامها الأخيرة واعتزال العالم .

ابراهيم ناجى

إبراهيم ناجى الشاعر ، والدكتور ناجى الطبيب الذى جمل من صناعة الطب شعراً وفناً إنسانياً نبيلًا ... أو الفيلسوف الصوفى ناجى الذى كان لا يرى الحياة إلا طريق خير وعطف وصلة محبة ومودة ، فعاش حياته للناس ؛ وكل ما وصلت إليه يده كان للناس مشاعاً ، وترك لغيره الشقاء فى سبيل المسادة ، وقنع لنفسه بالشقاء فى سبيل الناس .

ولد ذلك الرجل الفذ عام ١٨٩٨ فى أسرة متوسطة الحال ، ودرس فى المدارس المصرية ، ثم سافر إلى لندن حيث عكف على دراسة الطب والأدب عدة سنوات ، ثم عاد إلى مصر ليعمل طبيباً فى مصلحة سكة الحديد ، ثم فى مستشفيات وزارة الأوقاف إلى أن وصل إلى وظيفة مراقب القسم الطبى بتلك الوزارة ؛ وقد استقال من هذه الوظيفة قبل وفاته ببضعة أيام تحت تأثير ظروف خاصة ومضايقات فى العمل مما تأباه عليه نفسه .

وفى صباح اليوم الرابع والعشرين من مارس سنة ١٩٥٣ كان يزاول عمله الإنسانى فى عيادته يفحص مريضاً ثم ينصرف إلى ورقة يدون فيها بعض ما يهجنس فى نفسه من أحاسيس وما يجول فى خاطره من شعر ؛ ثم يطرق بابه مريض آخر فيقوم بفحصه ، لكنه يعود إلى مكتبه ويمسك القلم ليكتب له الدواء ، لكنه يسقط على مكتبه فاقد الحياة فلا يسعفه طب ولا أطباء .

وكان والد ناجى رجلاً مثقفاً وكانت له مكتبة كبيرة فى بيته يغرى أولاده على الاطلاع على ما فيها ، وكان فيها من ألوان الأدب الإنجليزى الشيء الكثير ، وكان الرجل يريد لابنه ثقافة واسعة . ولأترك ناجى يتحدثنا عما أراده أبوه ، وما أرادته مطالعته ، وما أراده القدر ... يقول ناجى : « أراد أبى شيئاً ، وأراد ديكنز شيئاً ؛

من خـر أوَّلاً ظمئت فما انتفـاعى بالأخـيرِ
إني عييت بصـ————بوتي وشقيت بالظمأ الكبير
من ذا يعين على الهجير فكى القيودَ عن الأسير
لا نبع في القفر السحيق ولا نجاة على الفــــدير
شفتاك وعد غــــدير وإب غداً مديد كالدهور
خلى سرايبك فيهما مافى سرايبك من نصير
وحي على الحــــاتاه بين القلائد والنحور
متألق الأمواج يــــرى بالمرافق والثغور

قَرَّبَ رُوحَكَ مَنَى قَرَّبِي ظَلَلِي وَاعْمُرِي بِرِضَاهَا
وَتَعَالَى حَدِيثِي ! حَدَّثِي ! أَنْتَ مَرَاةٌ شَجُونِي وَصَدَاهَا
فَمَبِينِي سَاعَةَ الصَّفْوِ الَّتِي تَقْسِمُ الْأَيَّامَ مَا فِيهَا سِوَاهَا
نَمْ أَمْضَى الْحَيَاةَ مُرَّةً صُبَّحَهَا عِنْدِي سِوَاها وَمَسَاهَا
حَتَّى فِي سَاعَةِ اللُّهُوَ تَرَاهُ يَنْظُرُ إِلَى الرَّاكِصَةِ فَلَا يَقْنَعُ بِمَا يَرَاهُ مِنْ لُحُوهَا ، بَلْ يَفْغُوصُ
فِي نَفْسِهَا ، وَيَبْحَثُ بَيْنَ حَنَائِيَا قَلْبِهَا فَلَا يَجِدُ إِلَّا آلَامًا مِنْ آلَامِ الْحَيَاةِ ، فَيَتَحَدَّثُ
عَنْ هَذَا الْقَلْبِ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ جَاءَ فِيهَا عَنْ هَذَا الْقَلْبِ :

صَبَّهَتْهُ فِي كَأْسٍ وَمَا سَكَبَتْ فِيهِ سِوَى أَنْتَ مَذْبُوحِ
وَلَقَدْ أَصْبَحَ نَاجِي فِي يَوْمٍ مَلَأَ الْأَسْمَاعَ فِي مِصْرَ وَالشَّرْقِ ، وَسَمِعْتُ عَنْهُ الْكَثِيرَ
الَّذِي شَافَنِي إِلَى رُؤْيَيْهِ حَتَّى سَاقَتْهُ الْمَقَادِيرُ — مِنْذُ سِتَّةِ أَعْوَامٍ — إِلَى أَسْيُوطَ فِي
زِيَارَةِ عَابِرَةٍ ، فَالْتَقَيْتُ بِهِ ؛ فَإِذَا أَنَا أَمَامَ رَجُلٍ يَفِيضُ رَقَّةً وَحْيَاءً وَتَوَاضَعًا ؛ حَتَّى أَنِّي
لَمَّا هَمَمْتُ أَنْ أَحْدِثَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَأَتْنِي عَلَى بَعْضِ إِتِنَاجِهِ ، قَالَ لِي مَبْتَسِمًا :
« يَا أَخِي يَقُولُ النَّاسُ عَنِّي أَنِّي بَيْنَ الْأَطْبَاءِ شَاعِرٌ ، وَبَيْنَ الشُّعْرَاءِ طَبِيبٌ ...
فَمَا رَأَيْتَ تَوَاضَعًا بَلَغَ هَذَا الْحَدَّ .

أَمَّا شَاعَرِيَّتُهُ فَقَدْ كَانَتْ قُوَّةَ رَائِعَةٍ صَافِيَةٍ كَنَفْسِهِ تَفِيضُ حَيَوِيَّةً وَإِنْسَانِيَّةً
كَقَلْبِهِ ، فَوَسَّعَتْ يَبْنَتَهُ ، وَأَجَادَتْ التَّمْبِيرَ عَنْ كُلِّ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنَاهُ فِي هَذَا
الْوُجُودِ ، وَهُوَ كَثِيرٌ .

وَكَانَ يَصْدُرُ فِي شَعْرِهِ عَنْ إِحْسَاسٍ قَوِيٍّ عَمِيقٍ بِالْحَيَاةِ ، وَإِنَّكَ لَتَحْسُنُ أَنَّهُ يَقْتَطِعُ
الصُّورَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَيُلَوِّنُهَا بِمَدَادٍ مِنْ دَمِهِ حَتَّى الطَّبِيعَةُ حِينَ يَصُورُهَا تَأْتِي صُورَهَا
مُخْتَلِطَةً بِحَالَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ وَأَمَالِهِ وَآلَامِهِ . فَاسْتَمِعْ إِلَيْهِ يَتَحَدَّثُ إِلَى الْبَحْرِ فِي قَصِيدَتِهِ
« خَوَاطِرُ الْغُرُوبِ » :

قَلْتُ لِلْبَحْرِ إِذْ وَقَفْتُ مَسَاءً كَمْ أَطْلَتِ الْوُقُوفُ وَالْإِصْفَاءُ !

وأراد كوبرفيلد شيئاً ، وأراد القدر أشياء غير هذه ! ما أظلم القدر ! فقد شاء أن أكون طبيباً وليس بالطب من حرج ، وإنما الحرج أن يكون الشعر مركباً في طبيعة إنسان ، فإذا بالقدر يضعه فوق أسنة المادة ، ويزجه في الدائرة التي لا شعر فيها ولا خيال ! وإنما الحرج أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت إلى أنات الجسد ؛ وشتان بين هذه وتلك ! وإنما الحرج أن تجذبه طبيعته لناحية ، ومهنته لأخرى ؛ حتى يتمزق بين شد هذه وجذب تلك .

أرايتم كيف أن ناجي أشفق على نفسه من مهنة الطب ، بل لقد خشى أن يأتي يوماً ينسى فيه الشعر والأدب والفن وتجرفه مهنته المادية فلا يذكر شيئاً عن عالم الروح ؛ لكن متى انتصر الإنسان على أقداره ؟ :

وهل يأبى الإنسان من مُلك ربه فيخرج من أرض له وسما

كما قال أبو العلاء ؟

لقد تغلبت طبيعة الشاعر على مهنته فأحالتها رسالة للشعر فكان ناجي يمارس مهنة الطب في كل مكان ... في وظيفته ، وفي عيادته ، وفي الطريق ، وفي المقهى ، وفي مكان اللهو ... وكان يعود مرضاه الفقراء في بيوتهم في كل مكان من القاهرة ولا يأخذ منهم أجراً ، بل كان في كثير من الأحيان يشتري لهم الدواء من ماله الخاص . وهكذا فهم ناجي الطب ، أفهمته طبيعته أنه رسالة إنسانية ، عليه أداؤها كما يؤدي رسالة الشعر .

واقدر تأثير ناجي في حياته بتوجيه والده أول ماتأثر ، وكان لذلك الوالد أعرق الأثر في توجيه مواهبه الأدبية والشعرية لكثرة ما قرأ له من الأدب العربي والإنجليزي حتى شغف ناجي بالمطالعة ، وأكثر منها ؛ لا سيما في الشعر حتى أنه كان يحفظ الجزء الأول من (ديوان الخليل) عن ظهر قلب . وكان لهذه المطالعات أثرها السريع في نفسه فبدأ ينظم الشعر في سن مبكرة ، ثم انضم إلى جماعة (أبولو) التي (١٠ — موكب الخالدين)

أسسها الشاعر أبو شادي ، وعلا نجمه في سماء الشعر ، وظهر تفوقه ونبوغه . ولا شك أن رحلته إلى إنجلترا أتاحت له فرصة أكبر ليغترف من بحار الأدب الإنجليزي ، وقد ظهرت آثار ذلك في كل أعماله الأدبية سواء في النثر أو الشعر وفي ميله إلى التوصل إلى أعماق النفس البشرية ليكشف عن العوامل الخفية التي تدفع الإنسان في الحياة . لكن ظل ناجي حياته يحس في أعماقه بشخصيتين متناقضتين ... الطبيب والشاعر ... العالم والفنان ... وظلت هاتان الشخصيتان تتجاذبان حتى مرزقا نفسه . وتراه دائماً حائراً بين طبيعته حيرة أورثته الماء ممضاً لا يجد له منه مهرباً فيصرخ مستغيثاً :

ليت شعري أين منه مهربى أين يمضى هارب من دمه ؟
ولا شك عندى في أن ناجي ما أتجه إلى دراسة الفلسفة وما تعمق في دراسة فرع علم النفس منها إلا بحثاً وراء طريق يريجه من هذه الحيرة التي اكتنفت حياته فلم تدع له إلى راحة النفس من سبيل . كشف له علم الطب والفلسفة عن حقائق كثيرة من حقائق الحياة وعاونتهما في ذلك بصيرة الفنان الناقدة ... لكن الحياة عند ما كشفت عن بعضها لناجي جملته يرتاع منها ويسى الظن بنواياها حتى تمنى الجهل فقال :

كل شيء صار مرءاً في فنى بعد أن أصبحت بالدمر علما
آه من يأخذ عمرى كله ويعيد الطفل والجهل القديم
وطفت الفلسفة على حياة ناجي ، وصبغت كل شيء حتى صورته الشعرية ، فاستمع إليه في قصيدته « الظمأ الكبير » التي يحاول فيها أن يعلل هذا الظمأ الذي يحسه ولا يجد له ريثاً لأنه لا رغبة له في قدح الساقى بل في روح الساقى .

قسماً بسرك في ضميرى وجوى كشبوب السعير
يا من أردت الرى لى ما فى كؤوسك من بحير

وجعلتُ النسيم زاداً لروحي وشربتُ الظلال والأضواء
إنما يفهم الشبيهُ شبيهاً أيها البحر نحن لسنا سواء
أنت باقي ونحن حرب الليالي مرَّقتنا وصيرتنا هباء
أنت عاتٍ ونحن كالزبد الذي هب يعلو حيناً ويمضي جُفاء

أما إذا أنشد ناجي في الغزل فهو إمام عصره في هذا الفن بلا نزاع... ولم لا وهو
الذي تفتحت عيناه على الحب، وظل حياته يلتسمه في كل مكان، ويعرض قلبه للهبة
الحرق، ويحوم حول نيرانه اللاحقة، ويتنظى في سعيه المشبوب.

فاستمع إلى أنات الحب الصادق ولهفة الحب وظمئه وخوفه وإشفاقه من أن
يؤذي الحبيب بنيران حبه :

ياحناناً كَيِّدِ الآسى الرؤومِ وشعاعاً يُشْتَهَى بعد الغيومِـ
أنا في بُعدك مفقود الهدى ضائعٌ أعشو إلى نورِ كريمِـ
أشترى الأحلام في سوق المُنى وأبيع العمر في سوق المومِـ
لا تقل لي في غدٍ موعدنا فالغدُ الموعودُ ناه كالنجمِـ
ياجنان الخلد قدّمت اعتذارى إذ يطوف الخلد سقى ودمارى
أيها الأمر في مُلك الهوى اعفُ عن لهفة روى وأوارى
أشتهى ضمك حتى أشتفى فكأنى ظامئٌ آخذ ثارى
غير أنى كلما امتدت يدي لعناق خفت أن تؤذيك نارى

وفي قصيدته (رجوع الغريب) تصوير رائع لتلك العواطف المتأججة في صدره

وقد أهاجها اللقاء بعد طول فراق كابد فيه ناجي من أهوال الحب :

عادت لطائرها الذي غنّاها وشدا فهاج حنينها وشجاها
أى الحظوظ أعادها لوفّيها ونجّى وحدتها وإلف صباها؟

مشبوبة التحنان تكتم نارها عبتاً وتخشى أن يبين لظاها !
يا إني المنشود سيرك ذائع نار الحنين دفينها أفشاها !
فيم السؤال ؟ أما يدلك جارف من صبوتي جاز المدى وتناهي ؟
ودموع أشعار أثرت نواحها وجمالك الوحي الذي أملاها !

أما الصبر الذي كان يحمل نفسه عليه حملاً وهو الحب المدله المدنف فقد صورده
أبداع تصوير وأعجبه في قصيدته « الانتظار » التي نجتزئ منها بهذه الأبيات :
لعينيك احتملنا ما احتملنا وبالحرمان والذل ارضيناً
وهان إذا عطفت ولو خيالا وأين خيالك المعبود أينما ؟
تعال فلم يعد في الحى سارٍ وهوّمت المنازل بعد وهن !
وران على نوافذها ظلام وقد كانت تطل كآف عين
ومنتظرٌ بأبصارى وسمى كما انتظرتك أيامى جميعا
وهل كان الهوى إلا انتظاراً شتائى فيه ينتظر الربيعا
ومن قصيدة له لم تنشر بعد أنقل إليكم بعض أبيات ، وكأنى به يخاطب بها
حباً جديداً . والقصيدة بعنوان « باقة ورد » :

أنت يا من جعلت روض حياتى مهد ورد إليك وردك رُداً
آية الورد أنه نفحة منك ومن عطرك الشذى استمداً
هذه باقة من الورد تجنّو ملائكة فى الرياض أصبح عبداً
يا جمال الجمال من خلّد الحسنة جميعاً فى نظرة منك تُفدّى
يا صباح الصباح من يملك للأرض واء وصفاً وللأفرائد عدداً
ليس بدعاً يا وردة العمر أن (م) لمغناك وردة الروض تهذى
لا تظنى ورداً يكافئ ورداً أنت أغلى حسناً وأكرم ورداً

غير أنى وإن عجزت عن التقدير حاولت ما تمكنت جهدا
 رامزاً للوفاء بالورد وللقلب إلى أعمق السرائر ودّاً
 وإلى العيد أنت عيد لأى أسمى جميعاً أنت الحبيب المفدى
 ومن العجيب أن أرى ناقدًا أدبيًّا ينمى على ناجى أنه عاش وحيداً فى أحلامه ،
 وضاق شعره عن أن يسم حياة مواطنيه فيما حوله ، بينما لو أنصف الناقد الكريم
 لرنى لناجى وأشفق عليه من الوحدة التى كان يحسها فى هذا العالم حيث كان يفتقد
 دائماً صدى مشاعره فى بيئته ، وهو الذى عاش من أجل الناس يبحث لهم عن السعادة ،
 وبقدم لهم كل ما ملكت يمينه ، ويبذل من نفسه لمواطنيه صباح مساء ، وإذا
 ما عاد مكدوداً بعد يوم عمله لا يجد أحداً يشركه آراءه أو يشكر له مجهوده ، وكأنه
 شاذ فى مجتمعه ، أو غريب عن عصره وبيئته ، فتنفطر نفسه أسى . وما أروع قوله
 بصور حاله :

يا قاسىَ البعد كيف تبتعدُ	إلى غريبُ الديار منفردُ
إن خاتنى اليوم فيك قلت غداً	وأين منى ومن لقاءك غداً ؟
إن غداً هوّةٌ لناظرها	تكاد فيها الظنون ترتعدُ
أطلُ في عمقها أسائلها	أفيك أخفى خياله الأبدُ ؟
يا لأمس الجرح ما الذى صنعت	به شفاةٌ رحيمة ويدُ
مسلء ضلوعى لظى ، وأعجبه	أنى بهذا اللبيب أبتردُ
يا تاركى حيث كان مجلسنا	وحيث غنّاك قلبى الفردُ
أرنبو إلى الناس فى جوعهم	أشقتهم الحادثات أم سعدوا ؟
تفرقوا أم هم بها احتشدوا	وغوروا هابطين أم صعدوا
إلى غريبُ تعالَ يا سَكْنى	فليس لى فى زحامهم أحدُ

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان يحس الشاعر بقيود كثيرة تحدّ من حريته ،
فيحاول التخلص منها لأنها تقتل منه الروح :

أعطني حرّيتي ، أطلق يديّ إنني أعطيتُ ما استقيتُ شيّ
آه من قيدك أوهي ممصى كيف أبقيه وما أبقى على
ويشيع التشاؤم بعد ذلك في شعر ناجي حتى يؤس من الحياة ولم بعد يرى
لوجوده معنى بعد أن توالى عليه النكبات والمنغصات ، فترك على مكتبه هذه
القصيدة التي لم تتم :

أملٌ ضائعٌ ولبٌ مشرّدٌ بين حب طغى وجرح تمرّدٌ
وضلالٌ مشّت إليه الليالي هاتكات قنّاعه فتجرّدٌ
وبدا شاحباً كيوم قتيل لم يكد يلثم الصباح المورّدٌ
غفر الله وهما من ليالي صوّرت لي الربيع والروض أجردٌ
قامتني الورقاء أحزان قلبي وشجّاه ، وغرّدت حين غرّد
ثم ولت والقلب كالوتر الدامى يقيم الدموع واللحن مفرد
ما بقائى ؟ أرى أطراد فنائى وانتهائى في صورة تتجدّد
وتشتد القيود ، ويرى ناجي من صحبه الغدر والخيانة ، فيسوء ظنه بالناس :

ويفكر في الموت كالمخلص الوحيد من عناء الحياة وغدر الناس :

عند ما تخلو ديارٌ من رفيقٍ وتحس السمّ في كأسٍ وساقٍ
عند ما يكشف حظٌّ وجهه سافر اللعنة مفقود الخلاقٍ
عند ما تسمى بظل عالقاً وبخيطة الوهم مشدود الوثاقٍ
يا فؤاد انظر وفكرٌ وافقٌ أئى قيد لك بالأوطان باقٍ

ولقد كان ناجي من كتاب القصة المبدعين ، وقد وجد في القصة القصيرة

وسيلة للتعبير بها عن آمال قومه ، فكانت قصصه صوراً حية للبيئة المحيطة به وما يحتاج في قلوب أفرادها من آمال وآلام . وقد نما في أواخر أيامه منحى التحليل النفسى فاهتم في قصصه بعرض نفسيات أبطاله للقراء ، وإبراز العوامل النفسية الخفية في قلوبهم . وإني لأذكر له قصة « زازا » التى نشرها فى إحدى المجلات فيما يقرب من عشرين عدداً .

كما أن ناجى اهتم بالصحافة كثيراً ، وكان قبل وفاته يكتب فى عدد ضخم من الصحف ، ينشر فيها مقالاته الثرية التى اتسمت بطابع الفلسفة والنظرة المجردة للحياة ، فتراه يوماً يتحدث عن « رسالة الحياة » فينتهى من الحديث إلى قوله « ويمكننا من هذا أن نستشف رسالة أبناء الحياة ، فالحياة تسعى إلى البقاء وتهدف للكمال ؛ فرسالة أبنائها أن يتعاونوا على البقاء والكمال » لكن روح التشاؤم التى سادت حياته تطفئ على نثره كما طغت على شعره فأقرأ يوماً يقول : « سنظل ندور كالنحلة إلى أن نموت ، ونحترق كالشمعة إلى أن نذوب » .

أبو شادى

وأنى الذى يبكى على جرح غيره ومالى على جرحى الدفين نحيب
أجل ما أصدقك يا أبا شادى فى قولك هذا ! وما أقل ما لقيت من وفاء فى
حياتك ! وما أكثر ما وجدت من جحود ! وأنت أنت :

الشاعرُ الغَزَلُ الذى سَحَرَ الهوى وسَبَاَ الجِمالَ ورقصَ الأنعاما

وعشت حياتك فى جهاد متواصل من أجل رسالتك السامية فى الحياة ؛ حتى
صرت نجماً من نجوم الشعر فى سماء العروبة ، وصوتاً عربياً يتردد صدها فى المشرقين ،
وفخراً لكل عربى فى العالمين : الجديد والقديم

لكن هذا النجم هوى فحاة ، وذلك الصوت خفت على حين غرة فى مساء
الثانى عشر من أبريل عام ١٩٥٥ فى مدينة واشنطن بأمرىكا مغترباً عن بلاده ؛
بعيداً عن وطنه الذى فارقه مكرهاً عام ١٩٤٨ ... يوم أن أبى الضيم ، ورفض أن يبقى
فى جامعة الإسكندرية لما لمسه من فوضى آتئذ واستهتار بحقوق المواطنين .

ولا أعتقد أن سبعة أعوام فى أمريكا عاشها أبو شادى وقلبه مشدود إلى وطنه
وروحه هائمة حول مصره تسلكه فى عداد شعراء المهجر ، لا سيما وهو لم يهاجر مختاراً ،
بل حفظاً لكرامته ؛ كما أنه لم يهاجر فى شبابه ، بل فى شيخوخته وآخر أيام حياته ،
بعد أن نضج تفكيره واكتملت كل مقومات شخصيته ؛ مما لم يدع مجالاً لتأثره
بالبيئة الجديدة التى انتقل إليها ، بل بقى كما هو الشاعر المصرى العربى الذى نشأ
فى الشرق وأشرب روحه .

فالدكتور أحمد زكى أبو شادى ولد فى القاهرة عام ١٨٩٢ فى بيت علم وأدب ،
فكان أبوه محمد أبو شادى محامياً ، لكنه إلى جانب مهنته فى المحاماة كان خطيباً

بليغاً ، وشاعراً ، وأديباً . ولا شك أن هذه النشأة الأولى مع أب كالأستاذ « أبو شادى » جديرة بأن تترك أعق الأثر فى حياة شاعرنا الفقيد . وما لا ريب فيه أن ذلك الوالد كان له أثره الكبير فى توجيه الشاعر وتشجيعه على سلوك حياته الأدبية . ولقد كان الوالد يدرك أن الأدب فى الشرق — لا سيما منذ خمسين عاماً — لا يقيم أود صاحبه ، ولا يتيح له من أسباب الرزق ما يكفل له الأمن والطمأنينة فى الحياة ؛ ولذا فقد وجه ابنه إلى دراسة عملية يحترفها للعيش ، وترك له الحرية بعد ذلك فى أوقات فراغه يوجهها أتى بشاء .

ولقد تخرج الدكتور أحمد زكى أبو شادى من كلية طب جامعة لندن عام ١٩١٥ لكنه لم يتمكن من العودة إلى بلاده إلا بعد أن وضعت الحرب الكبرى أوزارها . عاد إلى مصر فوجد لها فى ثورة وطنية رائعة ، وفى حقبة قومية مجيدة ؛ تجاوبت معها مشاعره ، فكان شعلة من حماس ونشاط فى ميادين الصحافة والأدب والشعر والاجتماع .

ولم يقتصر نشاطه على النواحي المعنوية ، بل قدّر أنه لا بد من عمل إيجابى لنهضة مصر ، وأهم ما يدعم هذه النهضة هو زيادة الثروة القومية لرفع مستوى الشعب المعيشى كيما يشعر بكرامته الإنسانية . وكان أهم عمل فى هذا المضمار هو تأسيسه لرابطة مملكة النحل التى أدخلت طرق النحلة العصرية فى مصر .

ولن تنسى جامعة الإسكندرية جهود الدكتور أبو شادى فى تأسيس كلية الطب بها ؛ تلك الكلية التى كان النزاع على مناصبها من أهم أسباب هجرته إلى نيويورك لما رأى فيه من تجافٍ عن روح العلم وكرامة العلماء ، وترك عمله كأستاذ بكلية طب الإسكندرية ليعمل أستاذاً فى جامعة نيويورك . وإنى ليحضرنى فى هذا المقام أبيات قالها من قصيدة طويلة فى رثاء الأديب الإسباني الحر بلاسكو إيبانز الذى مات فى المنفى لنزعته الجمهورية . ولو أن أبا شادى كان ينظر بعين الغيب فرأى محنته فى وطنه لما تحدث عن نفسه بأبلغ من هذا الحديث :

ولم ترضَ يوماً أن تكون مطية لشهوة حكام فكنت كميزان
وكنت مليكاً دون تاج يهابه أولو البنى من عاشوا بلذة إبخان
شريداً ، عزيزاً مستقل شعوبه أعم من الحصر المخص بأبدان

فيا راحلاً والعالم الحرُّ نادبٌ صديقك والخصم المعاند صنوان
فإنك فنان وللفن حرمة وإن أخطأ التقدير في حال إدجان
ولو كنت في قدر كقدرك لم يكن رثائى إلا قصة ذات ألوان
أضمنها إقدامك العمر مثلها أضمنها ملاح من مجدك الثانى
وأروى حنيناً من تراب بموطن بعيد ومن شمس لديه وريحان
ولقد نفى الدكتور أبو شادى نفسه مختاراً ، ومات في منفاه ولم يترك شيئاً لزوجته
وأبنائه الثلاثة سوى قصة كفاحه النبيل .

وإذا تحدثنا عن أبى شادى الشاعر الفنان وجدنا أنفسنا حيال شخصية فذة
متعددة النواحي ؛ إلا أن أبرز ما يميزها ذلك الاعتزاز الشديد بكرامته والحفاظة
عليها اعتزازاً يشبه ما نلمحه في شعره من اعتداد بنفسه وفنه . وهكذا دائماً كل
فنان أصيل تراه يحس نحو فنه إحساس الوالد نحو ولده فهو قطعة منه وهو فخوره .
استمع إليه يحدثنا عن الفن في وصف فنان :

هو الفن سلطانٌ على كل دولة يبدل من ضعف النفوس قواها
ويكسبها من بعد فقير لها غنى وأى غنى لولاه بز غناها
تأمله بين الحب والفن مبدعاً له جرأة في خشية تتلاهى
كما امتاز أبو شادى بالوفاء العميق الذى لا يتحول ، وإنه ليدرك من نفسه
هذه الخاصية الممتازة ، ويقدر أنه بعد فراقه وطنه لن تهدأ له نفس، ولن تقر روحه
أبداً ؛ فيقول مودعاً مصر :

وضعت فيك حنانى للجمال كما ركعت فيك لساميه وطاهره
لألبين وفيئا لا يغيره عادى الخطوب أيباً فى ضمائرِه
لئن أميت كفاحى فى منابه فسوف يحيا كفاحى فى مهاجرِه
فإذا ما بلغه فى مهجره — وقد كان يعزى نفسه بهذه الكلمة — نبأ وفاة
صديقه الممثل سليمان نجيب أنشد يرثيه ، بل يتفجع هو لغربته :

أخى سليمان هذى مغربى بلغتْ
قد كنت أشجى لنأبى عنك فى أسفى
بى غرَبَتَيْنِ وزاد الموت إقصائى
ياليتنى دُمْتُ ذاك الأسف النأى
ولقد كان وفاؤه لأستاذه الشاعر خليل مطران — صاحب مدرسة الرومانسية
الحديثة فى الشعر — من أروع أمثلة الوفاء فقد ظل لأستاذه التلميذ الخالص الأمين
بدافع عنه وبشد أزره ، وينشر رسالته ، ولقد كتب مطران يرجوه فى زيارة
قبل هجرته ، وكان أبو شادى بالإسكندرية ومطران فى القاهرة ، فكتب له
قصيدة تقتطف منها قوله :

أودّع النيلَ فى توديع شاعِرِه وفد أودّع نفسى فى مشاعِرِه
ولا أباعد أوطاناً أقدّسها إلا وروحى رهينٌ عند شاعره
والنزعة الرومانسية واضحة فى شعر أبى شادى الذى امتاز بتلك الصبغة الحزينة
والخيال الخاق ، استمع إليه يتحدث كالحالم فى قصيدته « تشاؤمى » :

ر سكننى وجهت بحنى وخاطرى إلى خَلْف ما تُبْدى الحياة لوسَنانِ
فأبصرتُ روحاً للجمال مُجَدَّةً وأدركت أنّا للجمال كقربانِ
مرزى فؤادى أن كون ضحية وأن يهب التجميل للسكون حرمانى
وماخفت موتى كأنه رب الذى قضى وحيداً فعمرى والمنية سَيانِ
والطبيب « مهرب » الرومانسى « وإليها يلجأ ، وفى رحابها يجد العزاء والحب :

بيننا الطبيعة ترعاني وتسعدني ببرها المتسامي دون أشباه
 فيها اندمجت ولم أجد رعايتها على المدى فإليها منتهى الجاه
 وقدمها عن غنائى من بدائمها موتى الحياة وقلبي ليس بالساهى
 أجل . . . إن الشاعر ليندمج في الطبيعة ويحس بالألفة التي تربطه بها ،
 فيضفي عليها من روحه ما يجعلها تمور بالحياة ، وتتحرك ، ويحس منها تجاوباً
 لمشاعره وعواطفه :

زُرْتُهَا أَشْكُو إِلَيْهَا لَوْعَى مِنْ جُحُودٍ نَالَتْنِي مِنْ زَمَنِي
 فَكَفَهَرْتُ فِي أَكْثَابِ سُخْبِهَا ثُمَّ صَاحَتْ صَاحِيحَةً الْمَتْنِ
 وَكَأَنِّي مَذْنَبٌ فِي عُرْفِهَا فَهِيَ أُمِّي وَهِيَ مَنْ تُلِمُّنِي
 مَوْتِي فِي ظِلِّهَا أَوْ نُورِهَا وَهِيَ فِي عَطْفِهَا تَنْعَشُنِي
 كَيْفَ أَشْجَى وَهِيَ حَوْلِي دَائِمًا مَلْجَأِي ، بِلْ مَعْبُدِي ، بِلْ وَطَنِي
 ثُمَّ لَمْ تَلْبِثْ عَلَى سَخَطٍ فَقَدْ صَفَحْتَ عَنْ زَلَّتِي أَوْ حَزَنِي
 وَالنَّسِيمَ الْحَرَّ يَحْكِي مَا رَأَى مِنْ غَرَامٍ وَمَعَانِي الْهَتَنِ
 فَأَغْتَدِي طَبْعِي حَنِينِي دَائِمًا لِمَجَالِيهَا الَّتِي تَفْرَحُنِي
 فَأَنَاجِيهَا بِحَبِّ مَعْلَنِ وَتَنَاجِيَنِي بِبِرِّ مُعْلَنِ
 مِنْشَدًا شِعْرِي وَحَسْبِي سَمْعُهَا فَهُوَ مِنْهَا وَلَدِيهَا يَفْتَنِي

إنه يتحدث إلى الطبيعة وهي تفهم عنه وتجيبه لسؤله ... تأمله في حديثه مع
 صديقه البحر :

هَيَّانَ مِثْلَكَ يَا صَدِيقَ الشَّاعِرِ أَنْظِرْ تَلَهَّفُ نَازِرِيَّ وَخَاطِرِي
 أَنْظِلْ تَشْجِينِي بِمَوْجِكَ رَاوِيًا قِصَصَ الْحَيَاةِ لِسَاكِنِي وَلِعَابِرِي

وما ضرَّ الشاعر لو اعترف بفراغه من دنيا الناس إلى عالم الطبيعة الرحب حيث
الصفاء والجمال والألم الحانية التي ترعاه :

فررتُ إلى حضن الطبيعةِ ناجياً بروحى إلى مرأى كروحي بسام
كأنى وقد غيّبتُ عنها رأيتنى يقيماً ضريراً تائهاً بين أيتام
إلى حيث ناعَتْ في وفاء محبتها بأجل شعر جلَّ عن أىِّ إعجام
إلى حيث أزهار الطبيعة في ندى من الطُّهر قد ماست بحلية أكام
فررتُ إليها أشتري خيرَ نعمتي بروحى وروحي الصبأ كرمُ مُستام
وقد طاب لى بُعدى وراحة عزلتى هنالك عن خلقٍ وشاهقِ آطام

وعندما آثر خليل مطران الاعتزال والابتعاد عن المجتمعات ، ولم يعد له جلد
على الكفاح تقدم الدكتور أبو شادى ليحمل المشعل ويواصل أداء الرسالة فأصدر
مجلة « أبولو » عام ١٩٣٩ وجعل منها لسان حال « جمعية أبولو » وهى جمعية كانت
خاصة بالشعراء ، ولأول وآخر مرة فى الشرق العربى تفرد مجلة للشعر والشعراء
ودراسة أعمالهم وتناولها بالنقد .

فكانت مجلة « أبولو » مدرسة جامعة جمعت بين أحضانها ناشئة الشعراء
وفحولهم ، وتخرَّج على صفحاتها جماعة من ألمع الشعراء كعلى محمود طه ومحمود أبو الوفاء .
وكان يتزعم هذه المدرسة أبو شادى ، ويمس بخاطر رسالتها ، ويعتز بها فهو يقول :
لحسبى أنى طابعٌ نهضةً بدتْ بطابعى الفنان فى المنل والضدِّ
يسير بها شعرى الطليق محرراً وإن كان بعض الناس ينفم بالقيدِ

وكان من أهم أهداف هذه المدرسة التجديد فى أساليب الشعر العربى ، والخروج
به من نطاق التقليد الضيق للعانى القديمة والاستعارات البالية ، وتطوير أساليبه
لتُجارى روح العصر ، ولتكون صورة صادقة للبيئة الجديدة التى نعيش فيها ؛ بيئة
الكهرباء واللاسلكى ..

ففى أباشادى فى قصيدته « صائد الغنم » وهذا ما سمى به المذيع أو الراديو
يصف هذه الآلة الجديدة الساحرة فى تلك الفترة من حياته :

هَلُمَّا صديقُ العزيرين وأغنما من الصفو ما يهواه مستمعانِ
ففى كل شبرٍ للهواء عواطفٌ وفى كل خفقٍ للأثير أغانى
تناجت بها الأربابُ من كل جانبٍ ويخطفها العُبادُ وهى دَوَّانٍ
فتغنم أعماراً من الأنس حولها وتولد أحلامٌ لهم وأمانٍ
أدْرِها على سمعى كَأنى بسممها أذوق سُلَّافَ الخلد بين غَوَّانٍ
ولست عصا موسى بأروع سحرها من السحر فى مفتاحها بيدنانى

وهو يذهب إلى أعماق الريف المصرى لا إلى بعير الصحراء فيصف الفلاحة
المصرية وجهادها فى حقلها إلى جانب أخيها الفلاح :

سيرى خلال القطن بين تبشُمٍ ما القطن إلا من تبشُمٍ فيكِ
ودعى الذى يدعوك ربَّةَ مصرِهِ يحنى أبْتسامِ الحب دون شريكِ
إنى أبايع بالسيادة مَنْ لها فى مجد وادى النيل تجدُ ملكِ
رَبَّتْ له همَّ الرجال وأطلعتْ أملاً كوعِدِ للصباح وشيكِ
أنتِ المؤلَّهة العزيرة بيننا وإنِ احتملتِ متاعباً لِلدَّويكِ
سيرى متَّوجة بتاج محبَّةٍ للنفع والإصلاح جَنَّبَ أخيكِ

وإن مشاعر أبى شادى الرقيقة لتأذى لما يقع فى هذا الريف المصرى من مظالم
ومأسٍ ، وما يراه من فقر مدقع إلى جانب الثراء الفاحش ؛ وإنه ليترجم عن هذه
الأحاسيس شعراً فيقول :

ما شان آلاف الفدادين التى هى كالمقابر للسواد العانى
ذهبوا بأرجاء البلاد تشرُّداً وتسكَّنُوا بمذَلَّةٍ وهوانِ

وجميعهم مَوْتَى وتلك لُحودهم ملء الضياع الضخمة العمران
تركوا المقابر صاغرين فعيشهم ومماتهم بهوانهم سَيَانِ
ولقد سمع أبو شادى وقرأ عن محنة فلسطين العربية وهو فى أمريكا ، فأرسل
القصيد تلو القصيد يستنهض هم قومه العرب ، ويسخر من أخطائهم وتخاذلهم ،
وينال منهم بلاذع قوله على ما فرطوا ؛ لكن بعد أن انجلت المعركة عن تلك المحنة
القاسية غلبه شعوره الإنسانى ، وطمخت طبيعته النبيلة ومشاعره المرفهة فأخذ يدافع عن
اللاجئين العرب البؤساء بكل لسان وفى كل محفل . ولقد قال فى ذلك شعراً كثيراً
مثل قوله :

حُرْسٌ فَنَ عَنْ وَيْلِهِمْ بِتَكْلَمٍ وَمَعَذَّ بُونَ لَهُمْ تَقَامُ جَهَنَّمُ
جَنَّتِ السِّيَاسَةُ مَثَلًا جَنَّتِ الْوَعَى وَالظَّالِمُونَ الْفَاشِمُونَ عَلَيْهِمْ
وَتَشَرَّدُوا لَا يَمْلِكُونَ وَجُودَهُمْ لَوْ كَانَ يُمْتَلَكُ الْوُجُودُ الْمُهَمُّ
إِنْ الْمَصِيبَةُ لَا مِثِيلَ لِرِزْهَافِهَا فِيمَا رَوَى التَّارِيخُ أَوْ مَا يَعْلَمُ

وإن قلب أبى شادى الكبير لا يقف فى مشاعره عند حدود مصر ولا حدود
العالم العربى ، بل هو إنسانى المشاعر ، عالمى النزعة . . . انه يألُم موت بلاسكو إيبانز
الأديب الأسباني الكبير ويعد فقده رزاً عالمياً فهو يرثيه بقصيدة من أروع قصائده
جاء فيها :

بلاسكو ! تموت اليوم فى النَّفْسِ بَيْنَمَا تَعِيشُ بِدُنْيَا قَدْ مَلَكَتْ وَأَوْطَانِ
وَتَرِثِيكَ آلَافُ الْعُقُولِ الَّتِي نَمَتْ بَنُورُكَ فِي لَيْلٍ مِنْ الْخُوفِ لِهَفَانِ
وَيَسْكُنُ هَذَا الصَّدْرُ بَعْدَ اعْتِيَادِهِ طَلِيقَ الْهَوَاءِ الصَّفْوِ فِي قَرَبِ غَدْرَانِ
فِيَا أَسْفَى لِلْحُرِّ يَمُضَى كَعَبْدِهِ وَيَا أَلَمَ الْمُعْتَبَانِ فِي مَوْتِ غُرْبَانِ

ولقد ظفر أبو شادى أخيراً بالتقدير فى الأوساط العالمية لهذه النزعة الانسانية
العالمية التى غلبت على روحه ، فانتخب عضواً فى مجلس إدارة « الرابطة الدولية
(١١ - فى موكب الخالدين)

لحقوق الإنسان » كما منحه الزمالة الفخرية للاتحاد الطبي الأمريكي ، وإن راديو « صوت أمريكا » ما يزال يردد على العالم أصداً صوته .

وإذا كان قد ظفر بالتقدير خارج مصر فإنه طالما اشتكى من جحود قومه وعدم تقديرهم لفنه ولتضحياته ، ولم يكن أبو شادي مفرداً في هذه الشكوى ، بل تلك كانت حال الأدباء جميعاً الذين عاشوا لفنهم في الشرق من ربيع قرن مضى ، وكان يدرك أبو شادي هذه الحقيقة فهو يقول :

رجاؤك أن تصيب وفاء قومٍ بررت بهم رجاء للمحال
فتغنم غاية التسفيه بمن بذلت له الرشاد وكلّ غالٍ
ويغدو كلُّ حسنٍ فيك قُبْحاً وكل كرامة شبه الضلال
وتلقى الاتهام يساق سَوْفاً إليك وحين لم يخطر بال
فما تدرى أصارَ الفضل عيًّا وبات النقص نوعاً من كمالٍ ؟
وساوى الأملئ بها جهولاً وأصبحت المساوى كالمعالى !

ويبدو أن الحملة على الشاعر ومدرسته التجديدية كانت قاسية عنيفة بعثت بالمرارة إلى نفسه ، وتسالت إلى شعره ، فأفصحت عن عميق ألمه من ذلك التجنى :

عددتُم ثباتي في يقيني ضلّةً أصبتم ! فخلّوني إذن ثابتاً وحدي
لعمري ما باليتُ يوماً بجمعكم خصيماً كأنى شائخاً لستُ بالفرد
ولكنما باليتُ عمري بمبدئي ففي مبدئي عِرْضِي وأكرم ما عندي
وأوذيتُ حتى قد تمتعتُ بالأذى وبالحسد المُشقى وبالألم المُردى
فإن كان لي في جرأني وصراحتي وفي تضحياتي ما حلمت من النقدِ
وإن كان سبقي وابتكاري ذلّةً ولم أرَ كالتجديد أقربَ للجدِّ
فلا خيرَ لي في مدحكم بسلاسلٍ فإن مديح العبد أصلحُ للعبدِ

لكن الوطن مهما جار فهو عزيز على صاحبه ، والأهل مهما ضنوا وأخطأوا
فهم كرام على نفس الشاعر ، وهو لا يألوهم نصحاء :

وطنى وإخوانى وأهل عقيدي ما العيش بين رضى وحظ كفاف
إن الحياة شبيهة وعظيمة في حالي الحرمان والألطف
مالمثل ذلك للجسم وإنما ذلك النفوس هو الشقاء الطاف
فتعاضدوا وتذرّعوا بقبائلكم وإخائكم إن الإخاء يعافى
لكم الحياة مع التائق كلما كنتم رجال توحد وتلاف
ودعوا خرافات الخصوم ولغوهم فكثيرها يحكى ثغاء خراف
خلوا الأمانة ديدنا لتعاون تجدوا التعاون أصدق الإسعاف
وتأملوا الضوء العزيز بوحدة فإذا تفرق ضاع فى الأطفاف

وهو يدعو قومه للاتحاد لمواجهة الأعداء والفوز بنعم الحياة وعدم المبالاة
بالشائعات التى ينشرها الخصوم حولهم لتثبط همهم ، وهو لا يتركهم للخيال والأوهام ؛
بل هو يرسم لهم السبيل السوى فيبصّتهم بما يجب عليهم عمله ، وأول شيء هو نصف
الأمة المهملة . . . المرأة التى بتعليمها وإنصافها ستكون المدرسة الأولى للشعب . . .
إنه يتحدث موجهاً الخطاب إليها :

وإذا تناسك الذين تحاذلوا جاهدت إشفاقاً على ناسيك
وعملت زارعة وحاصدة لهم وغذوت أفئدة بروح فيك
حتى إذا انتشع الغرور تنهّوا فإذا العتى النفس يسترضيك
ويعاف إلا أن تكونى حرّة فى عيشة تهنيه إذ تهنيك
قسماً بقدرك لو نصفت لأدركت مصر العزيزة كل ما يرضيك

وأنه بعد ذلك يجعل أدواء قومه كلها فى قصيدة مطولة يخاطب بها صديقاً له
عائداً من الخارج ، فيسأله عن تلك الدولة الأجنبية أسئلة استنكارية يلمس بها العلل
التي تشكو منها مصر :

وهل مجهودها للفرد أم هل	غدت خيراتها للحاكمينا ؟
وهل للنابعين بها حياة	تذال كحالنا والنابعينا ؟
وهل للجهل سطوة مستعز	على عقل يدين له مهينا ؟
وهل للعلم شعوزة تنامت	فكان جهالة للعالمينا ؟
وهل للفن سخرية ولمو	وأضحى الفكر فيها مستكينا ؟
وهل للشعر ألقاب وزهو	ودولات تظل الفاسقين ؟
وهل للطب ما نلقى : دعاوى	تعيد لنا زمان الساحرين ؟
وهل كانت صحائفهم خليطاً	من الأدران تؤذى الناشئين ؟
وهل عادت كنائسهم نهوضاً	فكفرت الهداة الفاتحين ؟
وحاربت الذكاء وإن تعالى	وهدمت البناء الحسينا ؟
وكم من مالك أضحى عتوا	يدوس الفالحين الزراعينا ؟
وكم من خادم لم يعط حقاً	من الدنيا فأت بها غيبنا ؟
وهل حرية الوجدان صدق	بها أم أنه صدقاً أهينا ؟
وهل للباحثين بها مجال	أم ابتدعت عداء الباحثينا ؟

وقبل أن أختتم هذه الكلمة أود أن أعرض عليكم أنموذجاً لما كان يسميه
أبو شادى « بالسونيتة الغنائية » وهو شعر لم يلتزم فيه قافية بعينها ؛ ويخيل إلى

أنه اقتدى فيه بما يعرف فى الإنجليزية بـ Blank verse

يا حياة الحب كيف الحياة ؟

بعد ما ضاعت عهود الحبيب ؟

ما جمال الصوت يحكى صداه
لا ولا الطب ظنون الطيب
إنما الذكري لمثلى عذاب
تشبه النوح بليل بهيم
مثلاً حنّ لماضى الشباب
دائم الوجد مُسِنٌّ سقيم
هكذا الطائر لما بكى
ما فاته حسُّ بآتى الربيع
لكنما قلبي إذا ما اشتكى
يشكو كمسجون بحصن منيع
ما خيال الحب وهو البعيد
إلا تباريح الفؤاد العميد

لقد كان أبو شادى غزير الإنتاج ، ومن غزر إنتاجه كثرت هفواته ؛
ولذا كثيراً ما نلمح فى بعض قصائده الجفاف العلمى ، أو اصطناع المعانى ،
وغلبة الصنعة الفنية على التعبير الشعرى . والأمثلة على ذلك كثيرة فى دواوين الشاعر ،
لكن هذا لن ينقص من قدر أبى شادى كإمام من أئمة شعراء العصر ،
ومجاهد سطر صفحة من أروع صفحات الكفاح فى الحياة ، أرجو أن يجد
فيها الشباب أسوة يتأسون بها .

إيليا أبوماضي

أيها الشاكي الليالي إنما الغبطة فكرة
ربما استوطنت الكوخ ، وما في الكوخ كسره
وخلّت منها القصور العاليات المشمخة
لك ما دامت لك — الأرض وما فوق الجرة
فإذا ضيّعتها فالكون لا يعدل ذره
لا نكن مُرّاً . . ولا تجعل حياة الغير مُرة

هكذا وصف إيليا أبو ماضي السعادة وعرفها للملايين وعاش حياته للناس
كالشمعة المحترقة تضيء لتفني ؛ سعادته الكبرى في أن يكتبه أسرار الحياة ويقدم
نتاج تجاربه لسعادة الناس .

ولقد ولد أبو ماضي في قرية المحيدثة بלבnaan سنة ١٨٨٩ وكان الشام جميعه ولاية
عثمانية تعانى ألوان الفساد السياسى الذى كان ضارباً أطنابه في أقطار الخلافة ، ولقد
أجأته ظروف الحياة السياسية والاقتصادية إلى الهجرة ، فنزح إلى مصر ، ونزل بـمصر
الإسكندرية سنة ١٩٠٠ حيث اشتغل بالتجارة بأن افتتح له محلا يبيع فيه الدخان
والسجائر ؛ ومن حانوته الصغير أخذ يرسل الشعر إلى مجلة الزهور التي كان يصدرها
مواطنه أنطون الجميل . والذي تعهد الشاعر الصغير بالتشجيع حتى أصدر ديوانه الأول
« تذاكر الماضي » عام ١٩١١ ، وفي نفس العام هاجر إلى أمريكا واحترف التجارة في
مدينة سنسنتي ، لكنه لم يكن سعيد الحظ في تجارته ، فانتقل إلى نيويورك عام ١٩١٦
حيث اشتغل بالصحافة ، وانضم إلى « الرابطة القلمية » وفي عام ١٩١٩ أصدر ديوانه
الثاني ، وفي عام ١٩٢٥ أصدر « الجداول » ثم « الخائل » عام ١٩٤٥ .

ولقد استقل عام ١٩٢٧ في عمله الصحفي بأن أصدر السمير التي ظل يراها بدمه وفكره وقلبه حتى وافاه أجله في مساء السبت ١١/٢٣/١٩٥٧ في نيويورك .
لقد امتاز أبو ماضي بخلة الوفاء الشديد ؛ ذلك الوفاء الذي كاد يعنيه عناء كثيراً ، فهو رغم انقضاء معظم عمره في المهجر لم ينس بلاده أبداً ، وعاش حياته على أمل أن تسكنحل عيناه بمرآة قبل أن يموت ، وقد حقق الله أمله .
ومصر التي أمضى فيها أحد عشر عاماً ظلت ذكرها تتردد في شعره ونفسه حتى قال :

لكن مصرأ ، وما نفسى بناسية مليكة الشرق ذات النيل والهزم
صرفت شطر الصبا فيها فما خشيت نفسى العثار ولا نفسى من الوصم
في فنية كالنجوم الزهر أوجههم ما فيهم غير مطبوع على الكرم
الشرق تاج ، ومصر فيه درته والشرق جيش ومصر حامل العلم
أحنى على الحر من أم على ولد فالحر في مصر كالورقاء في الحرم
وفلسطين جزء من الوطن العربي طالما أشقاه شقاؤها ، وطالما استنهض الهم لشد أزرها :

فليست فلسطين ملكاً لكم ولكن فلسطين ملكٌ لنا
وكانت لآبائنا قبلنا _____ وتبقى لأحفادنا بعدنا _____
من هنا وأعنى منذ فجر صباه عند ما اضطر للهجرة بدأت نفسه تعاني القلق ...
فهى نحن إلى الوطن لكن آمالها تدفع بها إلى احتمال فراقه لتحقيق طموح الشاعر .
ثم أخذت رحلته في الحياة تزوده بالمزيد من القلق حتى أصبحت نفسه ميدان صراع دائم بين قوتى الدفع والجذب يمثل حيرته في الحياة وظمئه الأبدى إلى الحقيقة ، وكان هذا الصراع ينعكس على شعره فترى القصيدة يصطرع فيها الموت والحياة ،

والحزن والفرح ، والأمل واليأس ؛ لكنها مع ذلك تنظمها وحدة نفسية قوية عميقة
هى سر عبقرية الشاعر :

سألتنى وقد رجعتُ إليها وعلى مفرق غبار السنين^(١)
أى شىء وجدت فى الأرض بعدى؟ قلت : إني وجدت ماءً وطينا
جمع الحسن والدمامة والإقـدام والخوف والهُنى والجفونا
والرجاء الذى يصير به الفد فـدُ ررضاً وشوكة نـسريـفا
والقنوط الذى يعرّى من الأو راق فى نشوة الربيع الفصونا
ووجدت الهوى كما كان قـدماً ثقة تارة وطوراً ظنونا
وشباباً سكران من شدة الوهم يخال الحال أمراً يقينا
فإذا شاخت الرؤى وتلاشت وصحبا بات جزمه تخمينـا
وسط هذه الحيرة والاضطراب لم يفقد الأمل أبداً ، بل كان متفائلاً دائماً داعياً
غيره إلى الابتسام :

قال اللىالى جرّعتنى علقماً قلت ابتسم واثن جرعت العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرثماً طرح الكآبة جانباً وترثما
كما عاش أبو ماضى فى بيئته بصور أحداثها فى شعره وقصصه ، وينصح بالدواء
لما يرى من أدواء ، فإذا شكاً إليه شيوخ الأمة طغيان الحاكم وترحموا على الملك
الراحل قال لهم :

لو فعلتم فعل أجدادكم ماقضى الظالم منكم وطرة
مالكم تشكون من محنتكم رضتم أن تسكروا
كيف لا يبنى ويطنى أمر يتقى أشجعكم أن ينظره

(١) من قصيدة « ماء وطن » .

ما استحال المرءُ ليثاً إنما أُسدُّ الآجام صارت هِرَرةً
وشعر أبى ماضى غنى بما يسمى حس الطبيعة ؛ تلك القوة التى ينفشها فى صور
الطبيعة فنستحيل إلى مخلوقات حية يتحدث إليها ، وتحدث إليه ، يسألها ويفتش
فى جيوبها :

فتشت جيب الفجر عنها والدجى ومددت حتى للكواكب إصبعى
فإذا هما متحيران كلاهما فى عاشق متحير متضعضع
وإذا النجوم لعلها أو جهلها مترجرات فى الفضاء الأوسع
وكان أبو ماضى فى أول عهده بالشعر يعنى باللغة عناية فائقة وتفتنه الجزالة اللفظية
متأثراً فى ذلك بالمتقدمين من الشعراء ، لكنه أصبح لا سيما بعد انضمامه إلى الرابطة
القلمية فى نيويورك يهتم أكثر بالقصيدة كوحدة واحدة وحياة متدرجة نامية ؛ إلا
أن القلق والاضطراب لم يفارقه فى جميع أدوار حياته ، ولعل هذا التناقض الذى
نلمسه فى شعره يعبر عن ظمئه إلى الحقيقة الذى كثيراً ما كان يقوده إلى حيرة مفرعة
تفقد المرء الثقة فى نظام الكون وفى نفسه . . فى مثل هذه الصور التى نثرها فى
قصيدته « الطلاس » :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيتُ
ولقد أبصرت قدّامى طريقاً فمشتُ
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟
لست أدرى

أجديدُ أم قديمُ أنا فى هذا الوجود
هل أنا حرٌّ طليق أم أسيرٌ فى قيود

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود
أتمنى أنتي أدرى ولكن . . .

لست أدرى

وطريق ما طريقى ؟ أطويل أم قصير
هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور
أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير ؟
أم كلانا واقف والدهر يجرى ؟

لست أدرى

حتى الموت لا يرى فيه أبو ماضى استقراراً وهدوءاً ، وكيف يكون كذلك بينما
هناك مخلوقات لا تترك الميت في سلام :

ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابر
هل رأيت الأمن والراحة إلا في الخفائر ؟
فأشارت فإذا للدُّود عيْثٌ في الحاجر
نم قالت : أيها السائل إني

لست أدرى

ونقوده هذه الحيرة إلى الكفر بالفكر الذى يشك في وجوده إطلاقاً !

أتراه بارقاً أومض حيناً وتوارى ؟
أم تراه كان مثل الطير في سجن فطارا
أم تراه انحلَّ كالموجة في نفس وغارا
فأنا أبحث عنه وهو فيهِم ——— ؟

لست أدرى

ويداعب اليأس نفسه بعد أن أطلال التساؤل ، فيسأل من جديد عن نفسه
التي تتبدل :

لِيَ إِيْمَانٍ وَلَكِنْ لَا كَإِيْمَانِي وَنُسْكَى
إِنِّى أَبْكَى ، وَلَكِنْ لَا كَمَا قَدْ كُنْتُ أَبْكَى
وَأَنَا أَضْحَكُ أَحْيَانًا وَلَكِنْ أَى ضَحْكَ ؟
لَيْتَ شَعْرَى مَا الَّذِى بَدَّلَ أَمْرِى ؟
لست أدرى

ويلجأ أبو ماضى أخيراً إلى الطبيعة يدفن فى أحضانها حيرته ويرى فيها مهرباً
له من الأسرار التى تعذب صدره كالأفاعى :

لَمْ يَسْمَعْ سَرَى فَوَادَى لَمْ تَسْمَعْ نَفْسَى الْمَغَانِى
فَقَصَدْتُ الْغَابَ وَحْدَى وَالْدَجَى مَلَقَى الْجُرَانِ
وَدَفَنَتِ السَّرَّ فِيهِ مِثْلَمَا يَدْفِنُ جَانِ
وَرَأَى اللَّيْلَ قَتِيلَى فَبَكَاهُ وَبَكَانِى

واست أدرى لِمَ يهرب أبو ماضى إلى الطبيعة وتغلبه الروح الرومانتكية دائماً
فى معظم أدوار حياته ، بينما هو يعتبر الهروب إلى الدير عاراً أى عار :

أَيُّهَا الْهَارِبُ إِنَّ الْعَارَ فِى هَذَا الْفَرَارِ
لَا صَلَاحَ فِى الَّذِى تَصْنَعُ حَتَّى لِلْقَفَارِ
أَنْتَ جَانِ أَى جَانٍ قَاتِلُ فِى غَيْرِ ثَارِ
أَفِيرِضِى اللَّهَ عَنْ هَذَا وَيَغْفِرْ ؟

لست أدرى

إيه أبا ماضى . . . أليس الخير فى الاستسلام للعقادير كما قلت ذلك يوما
عندما أنشدت :

أراد الله أن نعشق لما أوجد الحُسْنَنا
وألقى الحب فى قلبك إذا ألقاه فى قلبى
مشيئته . . . وما كانت مشيئته بلا معنى
فإن أحببت ما ذنبك ؟ أو أحببت ما ذنبى ؟

ولقد كان أبو ماضى يخشى الشيخوخة ويهتمها بأنها مجذبة لا توحى بشعر
ولا تفيض عليه بالإلهام :

أفلتت منى حلاوات الرؤى عندما أفلت من كفى شبابى
بتُّ لا الإلهام بابَّ مشرع لى ولا الأحلام تمشى فى ركابى
ويقول يصف كانه المحطمة :

لا حس فى أوتارها ، لا شوق فى أضلاعها ، لا حس فى باقيها
فارزحُ بحزنك يا حزين فإنها لا تنشر الشكوى ولا تطويها
وإذا انقضى عهد التعلل بالمنى فالنفس يشفيها الذى يرويها

لكن الحقيقة أن قصائد أبى ماضى لا تعبر عن توقيت زمنى نضب فيه معين
الشعر عند الشاعر ، بل إن مثل هذه الأشعار التى يذكر فيها تحطم قيثارته وانقطاع
الوحى لم تكن إلا صدى لأزمات كثيراً ما اعترضت حياة الشاعر فى كل أدوار
حياته ، وقد كان يتخذ منها حوافز لشحذ الهمة وتجديد العزيمة فهو هو القائل :

أثنان ما لاقيتُ أقسى منهما صمت الدجى والشاعر الحساس
لذلك ظل حياته يطالع الناس بالغالى من درره .

لكن هناك صفة أخرى غالبية على شعر أبي ماضى فى جميع مراحل عمره الالهى
ذلك الطابع الحزين حتى قال :

ألفتُ الهموم فلو أننى قدرت تمنعتُ أن أطربا
كأن الجبال على كاهلى كأن سرورى أن أغضبا
وكيف ارتياح أخى غربى بصاحب من هممه عقربا
والبيت الأخير فيه مفتاح السر ، فحياته المضطربة وغربته كانا يورثانه حينئذ دائما
إلى وطنه ، إلى جانب ما كان يحسه من تغير الناس والصدى والصديقة :

الأرض ... سوريا أحب ربوعها عندى ، ولبنان أحب جبالها
تشتاق عينى قبل يغمضها الردى لو أنها اكتحلت ولو برمالها
ولقد كان لأبى ماضى فلسفته فى الحياة التى انعكست على شعره ، فهو قد
« خضع حينئذ لحكم العقل ، ثم انتقض منطلقاً من إساره وحطم الأغلال ، وسار
يستضىء بنور القلب ، وشرب من نبع الحقيقة الواقعية ، ثم مَجَّ طعم مائها ؛ وعاد
يتغنى بالوهم الذى يزخرف الواقع ، وبالعالم الروى الذى لا تستطيع كف أن تكبته
أو تمحوه^(١) . »

استمع إلى هذه المادية المفرقة التى صاحبت الطور الأول من فلسفته :

كل نجم لا اعتداء به لا أبالى لاح أو غربا
كل نهر لا ارتواء به لا أبالى سال أو نضبا
اسقنى الصهباء إن حضرت ثم صف لى الكأس والحبيبا
ليس يروينى مقالك لى إنها العقيان منسكبا

(١) الشعر العربى فى المهجر للدكتورين إحسان عباس ومحمد يوسف نجم .

وهو يسخر من الروحانيات ومن ينصحه بالزهد في قوله يصف نفسه وقد تخيلها
في ثوب زاهد :

فكأننى البستان جرّد نفسه من زهره المتنوع المتضوّع
ليحسّ نور الشمس في ذرّاته ويقابل النسمات غير مقنّع
فشى عليه من الخريف سرادق كالليل خيم في المكان البلقع
وكأننى العصفور عرّى جسمه من ريشه المتناسق المتلّمع
ليخفّ محمله فخرًا إلى الثرى وسطا عليه النمل غير مروع
وأحيانًا نرى أبا ماضى يبلغ درجة التشاؤم في شعره فيبسط — كما حدث في
قصيدة الشاعر والملك الجائر — سيطرة الموت على الطبيعة وعلى الغاب وعلى الصالح
والطالح دون تمييز ، حتى يفقد الثقة في الكفاح والطبيعة بعد أن يكون في أحد
أطوار فلسفته قد آمن بالطبيعة ، واطمأن إليها ، وهام بها .

وتصطبغ فلسفة أبي ماضى كشعره بالاضطراب والقلق الذى ينتهى به إلى نوع
من التصوف ، وعود إلى استرواح الإيمان ، ومحاولة للتخليق في سمائه :

روحى التى بالأمس كانت ترتعُ في الغاب مثل الطيبة القمراء
نظرتُ إليك فأصبحت لا تقنعُ بالماء والأفياء في الغبراء
تصغى وتنصت والحمامة تسجعُ إصغائها لك ليس للورقاء
ولقد صفت نفسه ، وكانت الحبة أرق العواطف الإنسانية الخالدة هى أصل هذا
الصفاء وطريقه إلى معرفة الله :

قال قوم إن الحبة إنمّ ويح بعض النفوس ... ما أغياها !
إن نفساً لم يشرق الحبُّ فيها هى نفسٌ لم تدرِ ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نف سى وبالحب قد عرفت الله ...

وآراء أبى ماضى الفلسفية كثيراً ما كان يبسطها فى قصصه الشعرى الذى يمثل جانباً عظيماً من دواوينه ، وكان فى هذه القصص « يتحدث إلى الناس بالرمز الجماعى الذى يحسونه ، فصور لهم طابع حياتهم ، وجعل من تلك القصائد صوراً مألوفاً محببة لا تمنى لأنها لم تكن إضافة تافهة للتراث الشعبى ، بل كانت تمثيلاً صحيحاً لنفسية الجماعة صادراً عن مقدرة عظيمة لخلق الأسطورة وحظ كبير من الروح الدرامية^(١) » والأمثلة على ذلك كثيرة جداً كقصيدته (الشاعر والملك الجائر) و (الأسطورة الأزلية) و (الناسكة) وغيرها .

وإنه ليستعين فى هذه القصص بكل وسائل الفن القصصى حتى المفاجأة والتشويق كما فعل فى قصيدة « هى » التى أمعن بطلها فى إخفاء اسم حبيبته عن الحاضرين ، فهم يسألونه وهو يجيب :

قال : أجل أشرب سرّ التى بالروح تفدينى وأفديها
صورتها بالقلب مطبوعة لا شئ حتى الموت يمحوها
لا تترضّانى رياء ولا تلمنى كذباً وتمويهها
فإذا ما ألحّوا عليه بالسؤال :

فأطرق غير مكترث وتمتم خاشعاً . . أمى !

وبعد فقد عاش أبو ماضى ينشد السعادة للناس ولا يرضى لهم العذاب والحزن حتى قال يوصى من تودعه :

أنا إن أغضّ الحماّم جفونى ودوى صوت مصرعى فى المدينة
لا تصيحى واحسرتاه لئلا يدرك السامعون ما تضميرته
وإذا زرتنى وأبصرت وجهى قد محّا الموت شكّه وبقينه

(١) الشعر العربى فى المهجر .

لا تشقى على ثوبك حزناً لا ، ولا تذرفى الدموع السخينة
غالبى اليأس ، واجلسى عند نعشى بسكونٍ . . إني أحبُّ السكينة
وإذا الحارسان ناما عياء ورأيت أصحابه يتركونه
فتعالى وقبلى شفّتيه ويديه وشعره وجبينه
قبل أن يسدل الحجاب عليه ويوارى عنك فلا تبصرينه
وإذا الساعة الرهيبة حانت ورأيت حراسه يحملونه
وسمعت الناقوس يقرع حزناً فيردُّ الوادى عليه أنينه
زودَّ الراحل الذى مات وجداً بالذى زودَّ الغريب السفينه
نظرة تعلم السماوات منها أنه مات عن فتاة أمينه
وإذا ما جلست وحدك فى الليل وهاجت بك الشجون الدفينه
فاهجرى الخدع الجميل وزورى ذلك القبر ثم حيّ قطينته
وانثرى الورد حوله وعليه واغرسى عند قلبه ياسمينه

أحمد شوقي

أمير الشعراء

مرحباً بالمقال سمحاً كريماً لم يشبهه هجؤ ولا إيذاء^(١)

مرحباً بالمقال مقال شوقي . . . مرحباً بالقصيد العف والقول السكر يم . . . مرحباً بالنفس الرضية والخلق العظيم ! . .

إن شوقي هو ذلك الطير الغرد الذي غنى فأطرب الوادي ، وأنشد فتردد نشيده في الشرق كله وأطرب العروبة جمعاء ، في مشارق الأرض ومغاربها مدى نصف قرن من الزمان .

ولد أحمد شوقي كما حدثت عن نفسه عام ١٨٦٨ في القاهرة بباب إسماعيل في أسرة تنعم بعيش رغد في ظل حاكم البلاد ، وكان جده لأبيه قد أتى مهاجراً إلى مصر يحمل وصاة إلى واليها محمد علي من أحمد باشا الجزار ، فعمل في معية والي .

وقد أدخل شوقي مكتب الشيخ صالح عام ١٨٧٣ ، وتخرج في المدرسة الخديوية ، ودخل مدرسة الحقوق عام ١٨٨٣ فلبث فيها سنتين ، ثم دخل قسم الترجمة وتخرج منه بعد سنتين ، والتحق بمعية الخديو توفيق الذي أرسله إلى فرنسا سنة ١٨٨٧ لدراسة الآداب الفرنسية والحقوق ف قضى عامين في مونبلييه ، وعامين في باريس ؛ وزار خلال هذه الفترة كثيراً من الأقاليم الفرنسية وإنجلترا والجزائر .

وفي عام ١٩١٥ نفي شوقي من مصر فاختر أسبانيا لإقامته حتى أذن له الملك فؤاد في العودة في نهاية عام ١٩١٩ .

عاد شوقي إلى مصر لا ليستأنف حياته في قصر الملك ، ولا لينشد الشعر في الأعياد والمناسبات ، بل عاد حرّاً من كل قيد ليتحدث إلى الشعب ، ويتحدث

(١) إسماعيل باشا صبرى في تقريره لاشوقيات

الشعب إليه . . . بل ليتحدث إلى العروبة بأجمعها ، ولتتجاوب في حنايا نفسه آمال الشرق ومآسيه ، وليترجم عن هذه الآمال وبصور تلك المآسى .

وظل نجم شوقي يعلو منذ عودته من منفاه حتى بوبع بإمارة الشعر عن حق وجدارة ، وظل إنتاجه يعظم ويحسن ، حتى وافاه أجله في صباح ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

عاصر شوقي في حياته الثورة العربية في مصر ، وثورتها الوطنية عام ١٩١٩ ؛ كما شاهد الانقلاب العثماني الأول الذي انتهى بجمع السلطان عبد الحيد ، ورأى الخلافة تزول في النهاية عن تركيا وينهض على أنقاضها مصطفى كمال وجمهوريته ، كما شاهد انتفاض العرب خلال الحرب العظمى على دولة الخلافة ، وشاهد ممالك نزول ودولا تخلق ، وذاق آلام النفي .

ومن الظواهر المألوفة أن عصور الثورات وضعف الحكومات تشهد ازدهاراً في الآداب والفنون ، وكأني بالانحلال الأخلاقي الذي يسود تلك الفترات يلهب خيال الفنانين بما يكشف لهم من حقائق الحياة ونواحي الضعف في النفس الإنسانية في سهولة ووضوح .

ولقد تأثر شوقي بما شاهد وعانى واختبر فسمّا بشعره عن العرض الزائل إلى الجواهر الخالد ، واتسع أفقه فشمّل مصر والشرق كله ، بل الإنسانية بأسرها ؛ فنبأ كارثة باليابان تهز أوتار قلبه فيتردد صداها شعراً يجري به لسانه .

ولعل من أبعد الحوادث الخاصة — إلى جانب العوامل العامة — أثراً في حياة شوقي رحلته إلى فرنسا ومكثه فيها أربعة أعوام . تراه في أول عهده منها قد عرف الهوى الرخيص الذي اشتهرت به فرنسا فهو يصف لنا ذلك الهوى الخاطف الذي تسببه نظرة فابتسامة فسلام يعقبها كلام وموعد ولقاء ، ثم نسيان سريع لكثرة المعجبين أو المحبين .

خدعوها بقولهم حس... فانه والغواني يغرهن النساء
أتراها تنافست اسمي لما كثرت في غرامها الأسماء
إن رأيتي تميل عني كأن لم تكُ بيني وبينها أشياء
نظرة ، فابتسامة ، فسلام فكللام ، فوعد ، فلقاء
يوم كنا ، ولا تسل كيف كنا تهادى من الهوى ما نشاء
نم لا يلبث أن يلفحه الهوى بناره بعد ذلك ويصهر الحب روحه فتترك هذه
الرحلة آثاراً لاتمحي في قلبه وذكريات يرددها في شعره ما بقي من أيام حياته وثورته
حينئذ يعاوده بين الحين والحين .

فكتب شوق عن الحب مترجماً عن شعور صادق وتجربة حية لا شك فيها .
وما في شوقياته من الغزل من خير ما قيل في الحب ، لكنه بلغ أسى المراتب
من ذلك في مسرحياته حتى حق لدى أن يلقب بـ"نبي الحب" كما جاء على لسانه
في وصف قيس :

نبي الحب لا تخشأ أذى أو شرمة منا

عطف الطير والوحشا فلم لا تعطف الجنا ؟

ولقد كان شوق شاعراً فناناً ، ولم يكن صاحب مذهب فلسفي ، ولم يخرج
المعاني الفلسفية التي كانت ترد في شعره عن معاني معادة وحقائق ثابتة كثر ترددها ؛
وكان شوق في ذكرها مقلداً للمتنبي وأضرابه من الشعراء المتقدمين :

أما شعر شوق فلا شك في إبداعه وسموه وتفوقه ، ففيه يجد القارئ نجوياً
فكرياً وعاطفياً لما يحول بقلبه وعقله في لغة سهلة جزلة لا تنبو عن الذوق
أو السمع ، يسيرة على أذهان الناس ، مستساغة لدى الخاصة والعامة ؛ لكنها
صعبة المحاكاة .

وشعر شوق غني بموسيقاه اللفظية ، وليس أدل على ذلك من هذا العدد العديد

من الأغاني التي يختارها الموسيقيون والمغنون لتصويرها بموسيقاهم وأدائها بأصواتهم ، ولا أظن أن شاعراً ممن سبقه ، قد ترنم بشعره مثل هذا العدد من الناس في المشرق والمغرب .

وقد عيب على شوقي التقليد والإحالة ، ولا بد من بعض الضعف في أعمال كل عظيم ؛ لكن هذه الحالات القليلة التي تمسك بها بعض النقاد لا تنال من مكانة شوقي إذا قورنت بالتراث الضخم الذي خلفه للعروبة .

كما عيب عليه شعره في المدح لأنه لم يسمُ به عن مدح السلاطين والأمراء حتى قيل إنه شاعر الأمراء لا أمير الشعراء . ولو نظرنا إلى مدائح شوقي جملة لاستوقف انتباهنا أمران : أولهما أنه لم يؤله ممدوحيه ولم يقل بأنهم خوارق أو شواذ ليسوا من طينة البشر كما فعل بعض كتاب الشرق والغرب^(١) .

لا يقولون امرؤ أصلي فما أصله مسكٌ وأصل الناس طين

وثانيهما أن هذه المدائح صور واستعارات شعرية لا عقيدة سياسية ، لأنه إذا غير اسم الممدوح لم يغير ما يرمى إليه من القصيدة ، فأنت ترى دائماً أن اسم الممدوح لم يخرج عن كونه الروى في الشعر الذي لا يزيد أو ينقص من قيمة الشعر ولا من مبلغ مرماه الاجتماعي . والقصيدة بعد ذلك نصح للمدوح وإرشاد . . . وماذا يهم اسم الممدوح وإذا كان شوقي يقول له :

والعدل في الدولات أسُّ ثابت يفنى الزمان وينفذ الأجيالا

وكان شوقي يتأثر بمحادث عصره فيحسن تصويرها في شعره ، ويبذل النصح لقومه . . . فهو يرى عواقب الاختلاف الوخيمة ، ويرى ما يكيد به الساسة بعضهم بعضاً فيبذل النصح قائلاً :

(١) شوقي لأنطون الجميل .

إِلَامَ الْخُلْفُ بَيْنَكُمْو إِلَامًا وَهَذِي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى عَلَامًا ؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ وَتَبْدُونَ الْعِدَاوَةَ وَالْخِصَامَا ؟
وَفِي قَصِيدَةِ (سَلَوَا قَلْبِي) يَحْمِلُ أَدْوَاءَ قَوْمِهِ وَوَطَنِهِ ، وَيُوضِحُ سَبِيلَ الْخِلَاصِ ،
وَأَعْلَى أَبْرَزَ مَا فِيهَا حُضَّهُ عَلَى الْبَذْلِ وَتَحْذِيرَهُ مِنْ ضَرِّ الْأَغْنِيَاءِ عَلَى الْفُقَرَاءِ :

وَلَوْلَا الْبَخْلُ لَمْ يَهْلِكْ فَرِيقٌ عَلَى الْأَقْدَارِ تَلْقَاهُمْ غَضَابًا
تَعَبْتُ بِأَهْلِهِ لَوْمًا وَقَبْلِي دَعَاةُ الْبِرِّ قَدْ سَمُّوا الْخَطَايَا
أَلَمْ تَرَ لِلْهَوَاءِ جَرَى فَأَفْضَى إِلَى الْأَكْوَاخِ وَاخْتَرَقَ الْقُبَايَا
وَسَوَّى اللَّهُ بَيْنَكُمْ الْمَنَآيَا وَوَسَّدَكُمْ مَعَ الرُّسُلِ التَّرَايَا
أَكُلُّ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا زَكَاةَ الْمَالِ لَيْسَتْ فِيهِ بَابَا ! ؟
لَكِنْ حَذَارُ فَإِنَّ الْكَرْبَ إِذَا اشْتَدَّ بِهِؤْلَاءُ الْبُؤْسَاءِ ثَارُوا وَصَارُوا ذُنَابًا ضَارِيَةً :

وَلَا كَأُولَئِكَ الْبُؤْسَاءُ شَاءَ إِذَا جَوَّعَهَا انْتَشَرَتْ ذُنَابًا
وَلَوْلَا الْبِرُّ لَمْ يَبْعَثْ رَسُولٌ وَلَمْ يَحْمِلْ إِلَى قَوْمٍ كِتَابًا

وَالشَّرْقُ يَمْتَازُ بِرُوحَانِيَّتِهِ وَهِيَ طَائِفَةُ الْغَزْدِ الَّذِي عَرَفَ بِهِ فِي الْعَالَمِ مِنْذُ بَدَأَ الْمَدِينَةَ ،
وَهَذِهِ الرُّوحَانِيَّةُ تَتِمُّنْ أَوْ أَحْسَنَ تَتِمُّنْ فِي حَيَاتِهِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَسِيطِرُ عَلَى وَجُودِهِ إِلَى
حَدِّ بَعِيدٍ ، وَتَكْثِفُ انْتِجَاهَاتِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، وَتَسَبِّبُ لَهُ مِنَ الْمَشْكَلَاتِ الْجَمِّ
الْغَفِيرِ . وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُ الدِّينِ فِي حَيَاةِ الشَّرْقِ ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُ وَجَدَ مَكَانَتَهُ وَأَثَرَهُ
فِي حَيَاةِ شَوْقِي ، فَهَا هُوَ يَعْتَزُّ بِدِينِهِ فِي قَوْلِهِ :

آيَاتِهِ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جَدَّدَ يَزِينُنْ جَلَالَ الْعِثْقِ وَالْقَدِيمِ
يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ يُوَصِّيكُ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحْمِ
يَا أَحْمَدُ الْخَيْرُ لِي جَاءَ بِتَسْمِيَّتِي وَكَيْفَ لَا يَتَسَامَى بِالرُّسُولِ تَسْمِي

وَمَعَ هَذَا الْاعْتِرَازِ بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّا نَرَى الشَّاعِرَ لَمْ يُوْذِ أَحَدًا فِي دِينِهِ ، بَلْ كَانَ

شعره سمحاً كريماً دائماً ؛ حتى إن أدباء المسيحيين والإسرائيليين يتغنون بشعره الإسلامي ويطربون له طرب المسلمين أنفسهم .

ثم هو يحترم العقائد جميعاً ويحلّ الأديان وكتبها ، وله في كل هذا حكمة بالغة هي :

الدين لله من شاء الإله هدى لكل نفس هوى في الدين بعينها
ما كان مختلف الأديان داعيةً إلى اختلاف البرايا أو تعاديها
الكتب والرسل والأديان قاطبة خزائن الحكمة الكبرى لواعيها
محبة الله أصلٌ في مرادها وخشية الله أسٌ في مبادئها
وكل خير يلتقى في أوامرها وكل شر يوقى في نواهيها
تسامح النفس معنى من مروءتها بل المروءة في أسنى معانيها
وشوق الشاعر يعتبر من دعائم المسرح العربي إذ أنه بحق أول من قدّم المسرحية
المؤلفة الكاملة لهذا المسرح الجديد على عالمنا العربي .

ولقد سبقت شوق عدة محاولات لإنشاء المسرحية الشعرية لكنها كانت
عرجاء غير كاملة ولا ناجحة . . (كنزها الأدب في شجاعة العرب) التي ألّفها
طالب أزهري عام ١٨٧٢ في خليط من النظم الفصيح والمواويل الركيكة .

وقبل شوق كانت الأغلبية الساحقة مما يقدم على المسرح روايات مترجمة
أو مقتبسة ؛ الأمر الذي لا يستقيم معه وجود مسرح عربي .

ولم يكن شوق فيما كتب يعمل لسد نقص في بيئته لحسب ، بل كان يكتب
للخلود . وإني لياخذني العجب كلما طالعت مسرحيته « مصرع كليوباترة » فأسائل
نفسى أكان شوق يصف مصر في عهد كليوباترة أم هو يصف الشعب فيما حوله . .
أم هو يصف جموع الشعب في أى مكان تجمعت من العالم . . . ؟ ! استمع إلى قول
« حابي » مخاطباً صديقه :

اسمع الشعب ديون كيف يوحون إليه
ملاً الجو هتافاً بحماني قاتليته
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
يا له من بئغاء عقله في أذنيه

لكن هذه هي سمة الخلود التي تطبع أعمال العباقرة لأنهم حين يصورون فإنهم يصورون تلك الخصائص الباقية التي لا تختلف باختلاف الزمان أو المكان .

والحب تلك العاطفة الأبدية التي تشترك فيها الإنسانية جمعاء ، ولم تخل منه قصة ، بل كثيراً ما يقحم على القصة إلخاماً إرضاء للجماهير ؛ نجد أن شوقياً قد أفرد له مسرحية كاملة لا شيء فيها سواه .

ذهب شوقي في (مجنون ليلى) يصور لنا الحب في أسى مراتبه وأعلى معانيه حتى بلغ في ذلك ما لم يبلغه شاعر من قبله .

تأمل معي هذه الأبيات يترنم بها قيس وهو يسرى وحده في الفلاة في هداة الليل وسكونه :

سَجَا الليلُ حتى هاج لي الشعرَ والهوى وما البیدُ إلا الليلُ والشعرُ والحبُّ
ملأتُ سماءَ البیدِ عشقاً وأرضها ومَحَلَّتْ وحدى ذلك العشقَ ياربُّ
ألمَ على أبيات ليلى بى الهوى وما غيرَ أشواقى دليلُ ولا ركبُ
وبانت خيامى خُطوةً من خيامها فلم يشفى منها جوارٌ ولا قُربُ
إذا طاف قلابى حولها جُنَّ شوقه كذلك يطغى الغلة المنهلُ العذب
يحنُّ إذا شطَّت ويصبو إذا دَنَتْ فيا وبحِ قلابى كم يحنُّ وكم يصبو !

لقد جعل دليل قيس إلى بيت ليلى ذلك الشوق المتقدم في صدره ، وجعل قريبا يزيد في وجده ويطغى من شوقه . . . أترى هناك وصفاً أبلغ من هذا للحب الصادق ! ؟ أم ترى هذا القول من جيد الصنعة اللفظية كما زعم بعض النقاد ! ؟

ولنصغ إلى ليلي تناجي قيساً وقد التقيا في غربة :

أحقَّ حبيب القلب أنت بجاني أحلمُ سرى أم نحن منتبهان ؟
أبعد تراب المهد من أرض عامرٍ بأرضٍ ثقيف نحن مغتربان ؟
فينبها قيس في رفق وحنان إلى أن وطن المحبين هو حيث يجتمعان :

حنانك ليلي ما خللٍ وخلٍّ من الأرض إلا حيث يجتمعان
فكل بلاد قرّبت منك منزلي وكل مكان أنت فيه مكانى

وفي المسرحية حديث عن كل ألوان الحب . . . ولعل من أروع ما قرأت في التعبير عن حب الآباء وعاطفة الأبوة التي يعجز اللسان عن التعبير عنها هذا البيت يحريه شوق على لسان المهدي أبي ليلي وقد بهت الشيخ إذ يتهم في حبه لابنته فيقول مستنكراً الاتهام مستشهداً بفيض الحنان الأبوى :

أأظلم ليلي ؟ معاذ الحنان متى جار شيخٌ على طفلةٍ ؟

وهكذا نرى شوق لم يكتب مسرحيات ثمانى فحسب ، بل كتب فأجاد فترك آثاراً خالدة في الأدب العربي ، ووجه التأليف المسرحي في مصر إلى الوجهة القومية ، وشجّع كبار الأدباء والشعراء على متابعة الطريق .

ولم يكن فضل شوق على الأغاني العربية بأقل من فضله على المسرح العربي ، وهو لم يقتصر على تقديم الأغاني لنا من النظم الفصيح بل لقد قاد ثورة مباركة في دنيا الأغاني الشعبية التي كانت تعاني اضمحلالاً وانحطاطاً مريعاً فهي لا تخرج على ترديد آهات وليالي ، ولا تحوى إلا المبتذل من المعاني والسقيم من الصور والخيالات ؛ فقفز بها شوق إلى الأمام سريعاً ، وخرج على الناس بأغاني تعبر تعبيراً راقياً عن معاني سامية وشعور فياض ، وتفصح عن خلجات الفؤاد في أحسن أسلوب وأقوم تصوير . ولناخذ مثلاً هذا الموال :

في الليل لما خلى إلا من الباكي

والنَّوْحُ عَلَى الدُّوْحِ حَلِيٌّ لِلصَّارِخِ الشَّاكِي
وَنَجْمُهُ مَالَتْ وَنَجْمُهُ حَلَفَتْ مَا تَتَأَخَّرُ
وَالنُّوْمُ يَا لَيْلِ نَعْمَهُ يَحْلُمُ بِهَا السَّاهِرُ
الْفَجْرُ شَقِيقُ وَفَاضَ عَلَى سَوَادِ الْحَمِيلَةِ
أَمَحَّ كَلَمَحَ الْبَيَاضِ مِنَ الْعَيُونِ السَّكْحِيلَةِ
وَاللَّيْلُ سَرَحَ فِي الرِّيَاضِ أَدَمَ بَغْرَةً جَمِيلَةً

تأمل هذا التصوير البارع لبزوغ نور الفجر في الليل البهيم مشبهاً إياه بلمح
بياض العين السوداء وبالجوادر الأسود ذى الغرة البيضاء . . . لا شك أنه لم تجد
أغنية مصرية شعبية قبل هذه الأغنية ولا بعدها مثل هذا التصوير الفنى البديع .

وهو إذا عتب بلغ منتهى الرقة مع السمو عن الابتذال الرخيص :

ليه تشهى النوم عيونٌ وعيون سَـوَاهِي هَـوَاجِعُ ؟
ودوح غرق في الشجون ودوح ما داقش المَـوَاجِعُ ؟
وفي أغنية « بلبل على الفصون » يصف شوق الورد فيبلغ في وصفه منتهى
الإبداع والرقة مستعيناً في ذلك بتشبيهات مبتكرة نادرة ، لسنّها بالغة الروعة والرقة .

ياريحَة الحبايب يا خذَ المَـلَاحُ لشوكة جمالك وضعت السَـلَاحُ
تبارك الّلى خَلَقَ ظَلكَ من الخَلفَةِ والّلى كساكَ الورقَ وأَقَمَهُ دى اللّهُ
زى القُبُلِ وَلَقْتَ شِفَهَهُ عَلَى شِفَهِهِ

رحم الله شوق وعوض العروبة عنه خيراً .

حافظ إبراهيم

من طين مصر كما ومن أنفاسها والأرض لا تنمى الشعور ذميا
كالأنبياء يفيض من إيمانه باللفظ شهداً والبيات شميا
صافى الفؤاد فليس ينبض مرة إلا صفيّاً للنفوس حميا

بهذه الأبيات من الشعر وصف الدكتور أبو شادى حافظاً (رحمهما الله) فأجاد الوصف وأبدع التصوير ، لأن حافظاً كان بضعة من مصر ، وقطعة من طينها ، عاش مخلصاً لها يصور خلعها وما ينتابها من خطوب ، وكان أصدق مصور لما وقع في حياته من أحداث وللبيئة التي عاش فيها والمجتمع الذى أقام فيه متأثراً به ومؤثراً فيه .

« كالأنبياء يفيض عن إيمانه » وكذلك كل فنان ملهم يحس إحساساً قوياً بما تقع عليه حواسه وتتفاعل في قلبه خبراته وتجاربته فيحاول الإفصاح عنها وتقديمها للناس بأسلوبه الخاص وأداته المفضلة .

أما صفاء الفؤاد فيكفيها الدليل عليه وعلى إخلاصه تلك القصة التي يرويها الشاعر مطران عن رحلة في إحدى قرى لبنان مع حافظ حيث اعترض طريقهما زحام شديد ، واتفق أن عرف أحد الشبان مطراناً فأخبره مطران عن وجود حافظ معه ، ورجاه أن يفسح لها طريقاً . واستعان الشاب بشيخ أبيض اللحية طويلها ما كاد يعرف وجود حافظ حتى تفرس في وجهه ، ثم قال لصاحبه : « الحمد لله أننى رأيته قبل مماتى » ، فوقعت هذه الكلمات في قلب حافظ موقعاً عظيماً حتى أن وجهه أخضل على سمرته بالدموع المتساقطة من عينيه ثم قال لمطران : « اليوم كوفئت أجلاً مكافأة عن خدمة أدبها لقوم كرام .

ولد محمد حافظ إبراهيم عام ١٨٧١ في ديروط بمديرية أسيوط ، ونشأ في القاهرة وبعد أن جاز التعليم الابتدائى وطرفاً من التعليم الثانوى التحق بالمدرسة الحربية وتخرج

ضابطاً في الجيش المصري ، حيث أرسل إلى السودان ليمكث بضع سنوات ،
ويشارك عام ١٨٩٩ في ثورة ، فيفض عليه المستعمر ، ويطرد من السودان .

ثم يلتحق بعد ذلك بالبوليس في أرياف مصر ، لكن تلاحقه الغضبة في البوليس
ليخرج إلى الاستيداع ؛ ويحال إلى التقاعد وهو في رتبة اليوزباشى .

يعود بعد ذلك ببضع سنين فيلتحق بدار الكتب المصرية في وظيفة رئيس
القسم الأدبي بها ، ثم وكيلاً للدار حيث يظل في هذا المنصب إلى أن يخرج منه
في الستين قبل وفاته ببضعة أشهر في فجر ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ .

أما أبو حافظ فكان من ضباط البوليس ، واست أدرى مدى تأثير هذا
الوالد في حياة ابنه غير أن من الحق أنه لم يكن بذى ثروة . وقد مات وترك حافظاً
غلاماً يافعاً ، فكفله خاله ؛ ولم يكن أيضاً بالرجل الموسر ، فضاق بحافظ لبطالته وعدم
سلوكه حياة منظمة ؛ وأحست نفس الشاعر بملل الحال ، فقال معبراً عن آلامه وحسه
المرهف الذى أودى :

نقلت عليك مؤونتي إلى أراها واهيه

فأفرح فإني ذاهب متوجه في داهيه

وكانت المدرسة الحربية هي الوسيلة للتخفيف من أعباء خاله ، ولاختصار
الطريق إلى الحياة وكسب العيش .

فلما تخرج سار في حملة استرجاع السودان ، وعاش هناك سنوات قلائل شعر
خلالها بوطأة الاحتلال ، وكأنه نجا من خاله ليلقى عنت المغتصبين واستعباد المحتلين
إلى جانب قلة ماله — ومن كان في كرم حافظ لا يكفيه راتبه — فلم يشعر بتغير
في حياته ولا تقدم في معاشه ، فحيل إليه أنه حليف بؤس وشقاء ، وأنه ضحية
للظروف التي حرمته الأب ، وحرمة المال الذى يستطيع معه أن يفرغ لأدبه وشعره
وما خلق له .

ولقد اصطاحت عليه بعد عودته من السودان الأحداث والمضايقات حتى اضطر حيالها أن يلتمس إحالته على المعاش ويبقى في مصر بلا عمل .

هذه الأعوام التي عانى فيها حافظ آلام الحرمان وتقلب الحال وصروف الدهر هي أخصب سنى حياته إنتاجاً ، لكنه عندما التحق في سن الأربعين بالعمل في دار الكتب أخلد إلى الراحة ، وآثر العافية والبعد عن السياسة ، وكبت ثورة نفسه فقلَّ إنتاجه ، وأصبح شعره لا يسمع إلا في المناسبات ، كزناء من مات ، واستقبال من قدم ، وهو شعر يعتريه الفتور ، وتضعف فيه الحيوية ، ويغلب عليه الحرص على الوظيفة ومورد الرزق .

لا عجب — بعد كل ما قدمنا من ملاسات حياة حافظ — أن رأيناه متشائماً موغلاً في التشاؤم ، حتى قال يوماً : « لست أطمع في أن تطول حياتي ، وددت لو لقيت الموت الآن . . . وإني لأعجب من دلفه إلى ببطء كأنما أدركته الشيخوخة على توالى الأجيال فما يستطيع أن يسرع الخطى ليشفى نفساً سئمت العيش وبرمت الحياة . . . وماذا أبغى من حياة ضاعت الحقيقة فيها ، واستوى فيها الحسن والسيء ، وهضم الغنى حق الفقير ، وشابت الفضيلة وترعرعت الرذيلة . . ؟ ! وما أنا وحياة تحاذت فيها الهمم وفستت الذمم ؟ »

ولإنه ليعبر عن هذا الشعور شعراً في قوله :

آذنت شمس حياتي بمغيبِ ودنا المنهل يانفسُ فطِيبِ
وارقبه كل يوم إنما نحن في فبضة عَلامِ الغيوبِ
اذكري الموت لدى النوم ، ولا تغفلى ذكرتهُ عند المهبوبِ
حنَّ جنبأى إلى برد الثرى حيث أنسى من عدو وحبِيبِ
مضجع لا يشتكى صاحبه شدة الدهر ولا شد الخطوبِ
لا ، ولا يسمه ذاك الذى يسمُ الأحياء من عيش رتيبِ

ولم تسكن الأحداث العامة بأقل أثرًا من الأحداث الخاصة في توجيه حافظ هذه الوجهة القائمة . فهو قد عاصر الاحتلال منذ وطئت قدماء أرض وادي النيل وشاهد الانقلاب العثماني والحرب العظمى والثورة المصرية والكفاحية والعربية ، ورأى عن قرب العروش تهوى ، والنظم الاجتماعية تنزل ، وكل قيم الحياة تتغير ، وكل ما يبعث بالشك إلى النفوس وسوء الظن إلى القلوب .

وهو لم يرض يوماً عن حال بلاده وما آلت إليه على أيدي المستعمرين من سوء حال وضعف أخلاق ، وله في ذلك شعر كثير كقوله :

وهل في مصر مفخرة سوى الألقابِ والرُّتبِ
وذي إرثٍ يكاثرتنا بمالٍ غير مكتسبِ
وماذا في مدارسكم من التعاليم والكتبِ
وماذا في صحائفكم سوى التمويه والكذبِ

وما يسترعى النظر في ديوان حافظ أنه قليل البحث في التاريخ ، ولا يرجع ذلك إلى قصور في شاعريته ، إنما إلى نقص في علمه بحوادث التاريخ وبواعثها لأنه حينما كتب عمره المشهورة كان يخلق في سماء صافية من صفحات التاريخ ، ويحتل فيها بعض الدرر الغوالي .

لكن مما حجب حافظاً إلى النفوس أنه صور ما لمس بيده وما أحاط به عن قرب ... إنى أرى في ديوانه صور أناس أخالطهم كل يوم ، وأسمع آلامهم ، وأعرف أخبارهم ؛ وحافظ كان لسانهم المدافع عنهم .

وقد ساعدته عاطفته الجياشة وشعوره الرقيق على إجادة هذه الصور حتى غدا شاعر العروبة وشعره سجل الأحداث المعاصرة له .

وإلى جانب هذه الحساسية المتناهية كان حافظ ضليعاً في علوم اللغة مما ساعده على تقديم صورته الشعرية في أطر من اللغة بالغة القوة والإبداع ؛ حتى لقد قال عنه

مطران : « يتعب في قرض قريضه تعب النحات الماهر في استخراج تمثال جميل من حجره ؛ يؤثر الجزالة على الرقة ، وله فيها آيات » .

وقد كان له نصيب من (حس الطبيعة) وهو اهتزاز نفس الشاعر من مشاهد الطبيعة ، وما يحدثه هذا الاهتزاز من تجاوب مع قلب الشاعر وروحه فيتردد صداه في شعره روحاً يضيفها على هذه المشاهد ، فتتحرك بالحياة ، وتنبض بالروح ، وتتححرر من جهودها ...

تأمل هذين البيتين :

ولوشئتُ أذهلتُ النجوم عن الشرى وعطلتُ أفلاكاً بهنّ تدورُ
وأشعلتُ جلدَ الليل منى بزفرة غرامية منها الشرار يطيرُ
تحس بأن النجوم والليل كائنات حية ، ولليل جلد يأذى ويحس كجلد الشاعر نفسه .

ولم تقتصر شاعرية حافظ على الطبيعة واجتلاء صورها ، بل كان له في فنون الشعر جولات موفقة ، وكان في كل ناحية من القول يعبر عن شعور صادق وإحساس عميق ، فتراه حين يمدح صادقاً في مدحه معبراً عن شعوره العميق بفضل المدوح واستحقاقه للثناء ... تأمل معي قليلاً هذين البيتين :

بكرًا صاحبي يوم الإيابِ وقفًا بي بعين شمسٍ قفًا بي
إننى والذي يرى ما بنفسى لمشوقٍ لظل تلك الرحابِ
ألا تحس مع الشاعر بتلك الفرحة الفاسرة التي فاضت على مشاعره ، وكأنى به يود لو يطير إلى منزل الإمام محمد عبده فيلقاه ساعة عودته ويحظى برؤيته لحظة أو بته ، فلا تضع من هذه الفرصة دقيقة .

وهو يقول عن الإمام في قصيدة أخرى :

كأن فؤادى إبرة قد تمغطستُ بحبك أنى حرُفتُ عنك تعطفُ

كأن يراعى في مديحك ساجدٌ مدامعه من خشية الله تذرْفُ

ولم يسكن لهذا القلب الكبير الذى يفيض إخلاصاً لأصدقائه أن يضيق بحب
بلاده كلها ويتغنى بهذا الحب فى أشعاره حتى أصبح « شاعر النيل » والوطنية غير
منازع ، بل إن قلب حافظ قد وسع أمته بل العروبة جمعاء فصار لها ترجمان صدق
ولسان دفاع . . . بلادها جميعاً وطن له :

لمصر أم لرُبوع الشام تنفسُ هنا العلا وهناك المجدُ والحسبُ
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما قلب الهلال عليها خافقٌ يَجِبُ
خدران للضاد لم تهتك ستورها ولا تحوّل عن معناها الأدبُ
إذا ألمّت بوادى النيل نازلةً بانت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم أجابه فى ذرى لبنان منتحبُ
لو أخلص النيل والأردن ودّها تصالحت فيهما الأمواه والعشبُ
هذى يدى عن بنى مصر تصالحكم فصالحوها تصافح نفسها العربُ
فما الكنانة إلا الشام عاج على ربوعها من بنينا سادةٌ نُجِبُ
إن يكتبوا لى ذنباً فى مودتهم فإنما الفخر فى الذنب الذى كتبوا

والشعر السياسى يمثل أهم أجزاء ديوان حافظ ، وقد كان حافظ داعية إلى الجهاد
بهز قلوب مواطنيه بأشعاره الحماسية التى تفيض قوة ورجولة ووطنية فهو يقول :

حوّلوا النيل ، واحجبوا الضوء عنا واطمسوا النجم ، واحرمونا النسيما
واملاؤا البحر إن أردتم سفيناً واملاؤا الجو إن أردتم رجوما
إننا لن نحول عن عهد مصر أو ترونا فى الترب عظماء رميا

فإذا ما وقعت حادثة دنشواى التى خرج فيها القرويون يذودون عن أرواحهم

وأموالهم ، فاستكبر المستعمر ذلك ، لاسيما وقد مات أحد رجاله من ضربة الشمس ،
قاخذ ينكل بالأبرياء والمساكين . . . كان حافظ أول شاعر سجل المأساة فقال
بخطاب الغاصبين :

وإذا أعوزتكم ذات طوق بين تلك الربى فصيدوا العباد
إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجياد
لا تقيّدوا سن أمة بقتيل صادت الشمس نفسه حين صاد
ثم هو يذكر التمثيل بمن أعدموا أو جلدوا في تلك المهزلة على أيدي الإنجليز ،
ويذكر هؤلاء بسوء ما فعلوا :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتم أم كياداً ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتم أم جهاداً ؟
ليت شعري ألك محكمة التفقيش عادت أم عهد نيرون عاداً ؟

وما كان لمأساة مثل دنشواي أن تنسى سريعاً ، وما كان لحافظ ولا لشعب
مصر أن ينسى ذلك الظلم والوحشية والتنكيل الذي حل بمواطنين أبرياء بصورة
تبرأ منها الإنسانية وتنكرها المدنية ، فبرى حافظاً يصور قسوة الأحكام
في قصيدة أخرى :

جُلدوا ولو منيتهم لتعلقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شُنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا بلاطى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على المات وكأسه بين الشفاء وطعمه لا يعذب

ولا ينسى حافظ وهو يودع كرومر دنشواي ، ولا وهو يستقبل المنسوب
الجديد خليفة كرومر بقصيدة أخرى من عيون الشعر يتمنى فيها أن يكون على يديه
حوادث كدنشواي التي أيقظت المشاعر الوطنية .

وفي نفس القصيدة عرض سريع لبعض مظاهر المجتمع الجديد في ظل الاحتلال :
بنات الشعر إن هي أسعدتني شكوتُ من العميدِ إلى العميدِ
قتيل الشمس أورثنا حياة وأيقظ هاجعَ القوم الرقودِ
فليت كرومراً قد دام فينا يطوقُ بالسلاسل كلَّ جيدِ
ويتحف مصر آناً بعد آنٍ بمجـلـودٍ ومقتولٍ شهيدِ
لنزع هذه الأكفان عنا ونبعث في العوالم من جديد
وفي الشورى بنا داء عهدٍ قد استعصى على الطب العهدِ
شيوخ كلها همّت بأمر زارتهم دونه زار الأسود
لجى بيضاء يوم الرأى هانت على حمر الملابس والحدود

وهو في شعره السياسي لا يقتصر على مصر ، بل هو دائماً يقصد العروبة كلها
ويتحدث إلى العرب في كل مكان ... فاستمع إلى هذا النداء يوجهه إلى الشرق
العربي بمناسبة مأساة طرابلس :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق ، واحذر أن تناما
وأحلى أيتها الشمس إلى كل من يسكن في الشرق السلاما
واشهدى يوم التنادى أننا في سبيل الحق قد مِتْنَا كراما
مادت الأرض بنا حين انتشت من دم القتلى حلالاً وحراما

وهناك لون آخر من الشعر أجاد فيه حافظ ، بل هو من أجود شعره ؛ ذلك هو
الرثاء ، ولعل ذلك مرجعه لروح التشاؤم التي كانت تلازمه ، ولهذا الشقاء الذي
كان يتخيله ، ولما كان يحسه من ظلم الزمان له ، حتى أجاد التوجع والتألم والشكوى .
(١٣ - في موكب الخالدين)

فإذا رثى حافظ فهو يتحدث عن المرنى وصلته الشخصية به وجميعته فيه ، وترى القصيدة تسرى فيها لوعة الحزن الشخصى وروعة الوفاء ، ويبرز فى القصيدة صورة الفقيد وأعماله وخلاله .

فرثاء حافظ من النوع الإنسانى البسيط ، يختلف قوة وضعفاً حسب مكانة المرنى فى حياة الشاعر أو فى الحياة العامة ، وهو بكاء من الشاعر لنفسه ولذكراياته وأصدقائه الراحلين لا تكلف فيه ولا تصنع . . . فلا فلسفة هناك ، ولا محاولة للتفلسف ؛ إنما إرسال للنفس على سجيته فى الحزن وتصوير لهول المصاب .

فأنت إذا قرأت رثاء حافظ للشيخ محمد عبده خرجت بصورة لمواقفه وأعماله وآثاره ، ثم لفجأة العلم والدين فيه ، ثم لهذا الأسى واللوعة التى تغمر نفس حافظ لفقده وفقد منزله فى عين شمس الذى أظله كثيراً .

سلام على الإسلام بعد محمد	سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا ، على العلم والحجج	على البر والتقوى ، على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله	فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوالهفى — والقبر بينى وبينه —	على نظرة من تِلْكُمْ النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعاً	كأنى حيال القبر فى عَرَافَاتِ
تباركت هذا الدين دين محمد	أيترك فى الدنيا بغير حُماة ؟
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى	ولانت قناة الدين للغمرات
بكى عالم الإسلام عالم عصره	سراج الدياجى هادم الشبهات
بكينا على فرد وإن بكائنا	على أنفُس الله منقطعات
تعهدنا فضل الإمام وحاطها	بإحسانه والدر غير مواتى
فيامنزلنا فى عين شمس أظلنى	وأرغم حسّادى وغمّ عِدائى
عليك سلام الله مالك موحشاً	عبّوس المعانى مقفر العرصات

وكذلك جميع مراثيه فهو إذ يرى مصطفى كامل يصور حزنه وحزن مصر
رجالها ونسائها على الفقيـد مع تصوير أعمال بطولته :

نثروا عليك نوادى الأزهارِ وأتيت أنثر بينهم أشعارى
غادرتنا والحادثات برصد والعيش عيش مذلة وإسار
عزّ القرار على لیسلة نغیهِ وشهدت موكبهُ فقرٌ قرارى
شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته وعلمتُ مفهـه مراتب الأقدار
تسعون ألفاً حول نعلك خشمٌ يمشون تحت لوائك السيارِ
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطار
كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكت عليك حرائر الأستار

وفى ختام هذا الحديث عن حافظ لابد من ذكر شيء عن فـكـاهاته التى
وهبها الله له ليضحك من بؤسه ويتهمك بشقائه ، وهى طبيعة المصرى الصميم ومزاجه
الذى يظهر المرح ويكتم الألم والحزن ، بل يتخذ من مرجه الظاهرى الممزوج بالفكاهة
وسيلة للتنفيس عن شقائه ، ومنفذاً للترويح عن آلامه .

وقد أضافت هذه الروح فناً مستحباً لفنون حافظ فى الشعر يظهر أكثر ما يظهر
فى شعره الذى يداعب به إخوانه وبشكو إليهم فيه زمانه .

فقد كتب إلى جاره له يوم زفافه يستهديه طعاماً :

أحمدُ كيف تنسانى وبينى وبينك ياأخى صلة الجوارِ
أشبع مصطفى الخولى وأُمسى أعالج جوعتى فى كسر دارى
وبيتى فارغ لا شيء فيه وسوى ، وأننى فى البيت عارِ
ومالى جزمة سوداء حتى أوافيكم على قرب المزارِ
فإن لم تبعثنَّ إلىّ حالا بمائدة على متن البخارِ

تُعْطِيهَا مِنْ الْحُلُوى صَنُوفٍ وَمِنْ حَمَلٍ تَتَبَّلُ بِالْبَهَارِ
فَإِنِّى شَاعِرٌ يَخْشَى لِسَانِى وَسُوفَ أُرِيكَ عَاقِبَةَ احْتِقَارِى
وَقَدْ صَوَّرَ حَافِظُ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَمْثَالِ الْعَامِيَةِ وَالتَّعَابِيرِ الْمَصْرِىَّةِ فِى شِعْرِهِ الْفَسْكَهَ
كَقَوْلِهِ فِى حَفْلَةِ تَسْكْرِيمِ حَفْنِى نَاصِفٌ :

لَوْلا الْحَيَاءُ وَلَوْلا	دِينِى وَعَقْلِى وَسُنِى
لَقُمْتُ فِى يَوْمِ حَفْنِى	أَدْعُو لِسُكْرَةٍ يَنْبِى
لَا تَنْسَ عَيْشًا تَوَلَّى	مَا بَيْنَ شَرْحٍ وَمَتْنِ
وَذَقْتُ مِنْ (جَاءَ زَيْدٌ)	وَمِنْ شَرْحِ الشَّمْنِى
أَيَّامِ (سُلْطَانٍ) يَلْهُو	(بِمَشْهُ) وَيَغْنِى
يَشْكُو إِلَيْكَ وَتَشْكُو	إِلَيْهِ عَيْشَةُ غَبْنِ

هَذَا هُوَ حَافِظٌ ، وَ . . .

هَذِى مَنَاقِبُهُ فِى عَهْدِ دَوْلَتِهِ لِلشَّاهِدِينَ وَلِلْأَعْقَابِ أَحْكِمِهَا

فہرست

	مقدمة الناشر		٥
	شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة		١٢
	القصص في ديوان ابن أبي ربيعة		١٨
	جميل بن معمر		٢٥
	كثير		٣١
	بشار		٣٨
	العباس بن الأحنف		٤٦
	ابن الرومي		٥٧
	الشريف الرضي		٧٠
	المتنبى		٨٠
	ابن زيدون		٩١
	ولادة بنت المستكفي		٩٦
	ابن زمرك ، شاعر ملك		١٠٣
	جميل صدق الزهاوى		١١١
	معروف الرصافي		١١٨
	أبو القاسم الشابي		١٢٦
	مصطفى صادق الرافعى		١٣١
	عبد الحميد الديب		١٣٩
	الآنسة د مى		١٤٤
	إبراهيم ناجى		١٥٤
	أبو شادى = أحمد زكى		١٦٦
	إيليا أبو ماضى		١٧٧
	أحمد شوقى		١٨٦
	حافظ إبراهيم		